الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة أبو بكر بلقايد –تلمسان–

كلية الآداب و اللغات

قسم: اللغة العربية و آدابها

تخصص : حضارة عربية إسلامية

مذكرة تخرج لنيل شهادة الماستر

الموسومة بـ:

مصادر ابن خلدون في المقدمة - التصوف - أنموذجا

*موسى نوال

*مشرنن نبيلة

*أ.د محمد موسوني

السنة الجامعية:1435/1434هـ-2014/2013 م

بسم الله الرحمن الرحيم

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم

" من يرد الله به خيرا يفقه في الدين "

الإهـــــداء

إلى الذين قال الله سبحانه وتعالى في حقهما :

(فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما وقل لهما قولا كريما واخفض لهما جناح الذل من الرحمة وقل ربي ارحمهما كما ربياني صغيرا).

صدق الله العظيم

إلـــى جميـــع أفـــراد عـــائـلتـــي

إلـــى أصـــدقـــائـــي وأحبـــائـــي

إلـــى كـــل طـــالـــب عـــلـــــم

و إلـــى كـــــل من علمنـــي حرفـــا

أهـــــدي ثـمـــرة جـهـــدي هـــذا .

موســـــى نـــوال

الإهـــداء

الجميل في هذه الحياة أن تزرع شيئا فتصبر عليه حتى يأتي يوم حصاده، و الأجمل من هذا كله أن تقاسم حصادك وثمارك مع من تحبهم وتحترمهم وتقدرهم وتسعد بوجودهم وتشعر بدفء حنانهم.

إلى من غمرتني بفيض حنانها وأخلص دعواتها وسهرت الليالي من أجلي ، إنها نبراس حياتي وسر نجاحي ،إلى التي حملتني وهنا على وهن أمي خيرة .

إلى والدي العزيز الذي كان مثلي الأعلى في الحياة وسندي في مشواري الدراسي محمد.

إلى إخوتي: ربيعة ، أمينة ، نصيرة، فاطمة، إيمان، علي ، فتحي وميلود وكل أولادهم.

إلى كل من جمعني بهم مجمع علم وصداقة وقرابة : فاطمة، نوال ، سارة، هوارية، نسرين، بشرى ، رحيمة، خديجة.

إلى من لم أذكر أسمائهم فذكراهم في قلبي ولهم جميعا شكري وتقديري.

وفي الأخير أشكر كل من ساعدني في إنجاز هذه المذكرة.

مشرنن نبيلة

كلمــة شكــر

بعد حمد الله والثناء عليه أن وفقنا لإتمام هذا البحث ومن باب من لم يشكر الناس لم يشكر الله

نتقدم بالشكر الجزيل إلى الأستاذ الدكتور : محمد موسوني الذي أشرف على هذا البحث، وأثراه بإرشاداته ونصائحه ، فجزاه الله عنا كل خير .

كما نتقدم بجزيل الشكر إلى الأساتذة الأفاضل أعضاء لجنة المناقشة على جهودهم المبذولة في مناقشة بحثنا ، وعلى ملاحظاتهم القيمة ، وآرائهم السديدة .

ونشكر كل من مد لنا يد العون في انجاز هذا البحث .

والحمد لله أولا وأخيرا

مـــقـــدمـــــة

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله صلى الله عليه وسلم

استأثر التصوف الإسلامي باهتمام الباحثين قديما وحديثا، وكثرت الأبحاث التي تناولته تأريخا ودراسة ونقدا، وتباينت الآراء في حقيقته وفي أثره على الفرد والجماعة ، وطبيعي أن تكون للتصوف تلك المساحة من الدراسات وأن يستأثر بذلك القسط من الجهد ، إذ انه نشأ ونما على ضفاف الدين وواكبه وما يزال ، فأنصار التصوف والصوفية أنفسهم يرون أنهم هم المقصودون بالآيات التي تنوه بمرتبة المؤمنين والصادقين والمجاهدين والمخلصين وكل تلك الدرجات يتبوؤها الذين يخشون ربهم ويهتدون بهديه ويخافون وعيده ،فهم ينسبون التصوف إلى الإسلام ويرتقون بنسبهم إلى النبي صلى الله عليه وسلم : إنه ورثة علم الباطن.

ومن أبرز المنظرين للتصوف العلامة ابن خلدون الذي كتب عن نشأة علم التصوف ،وأشهر علمائه،ونظرياتهم، وكراماتهم، ورياضا تهم، ونحلهم، في مقدمته التي تعتبر فتحا فكريا وأساسا متقدما لمختلف العلوم وفي مصنفاته الأخرى كالشفاء واهتمام ابن خلدون بموضوع التصوف ، جاء نتيجة لعصره الذي عاش فيه إذ عج هذا العصر بالصوفية والمتصوفة .

فكيف نظُر ابن خلدون لعلم التصوف؟ وما موقفه منه ، وما هي أهم النقاط التي عالجها خلال بحثه للتصوف في المقدمة ؟

وعن أسباب اختيارنا للموضوع فيرتكز على نقطتين ، فأما الأولى تتمثل في شخصية ابن خلدون الفذة ، فرغم معاصرته للكثير من الفرق الكلامية والفلسفية والصوفية وتتلمذه ودراسته الكثير من مناهجهم إلا أنه كان له منهج خاص وفريد، فهو قريب من مذهب السلف الصالح يجمع بين النقل الصحيح والعقل الصريح، وكذا قدرته على عرض القضايا مع إلمامه الماما كاملا بها ثم نقده لها وإظهاره الرأي الراجح الموافق لأدلة القرآن والسنة ،وأما النقطة الثانية فهي عن آثاره العلمية العقدية ، وما حضيت به من قراءة وبحث وجدال، من بينها التصوف الذي حضي باهتمام الدارسين والصوفية إذ اختلفوا في فهمه ، وظل الناس عن فهم مقصده ، فجاء ابن خلدون ليصحح المفاهيم الصحيحة التي دخلت على علم التصوف.

إن أي عمل كان لا يبدأ من العدم ، بل هناك جهود ودراسات تسبق ذلك العمل فمن الدراسات السابقة على بحثنا : رسالة ماجستير للباحثة محصر وردة عنوانها **"ابن خلدون شاعرا"** ورسالة دكتوراه بعنوان" سؤال الحداثة في الشعر الصوفي حتى القرن السابع هجري" للباحث عبد المجيد عطار .

ويطرح هذا الموضوع إشكالية تتمثل في كيفية توفيق بين ظاهرة التصوف كعبادة والتصوف كفكر فلسفي تخضع لثقافة المنهج كما يؤسس له ابن خلدون.

وتبقى طبيعة دراسة هذا الموضوع قائمة على الوصف دون إهمال الجانب التاريخي في عملية التحليل ، وقد اشتملت خطة البحث على مقدمة وتمهيد وفصلين وخاتمة وقائمة للمصادر والمرجع وفهرسا للمواد.

ففي الفصل الأول تطرقنا إلى "حياة ابن خلدون" من خلا ل مبحثين الأول عصر ابن خلدون وتحدثنا فيه عن عصره من الناحية السياسية والاجتماعية و الفكرية والاقتصادية والمبحث الثاني خصصناه **"للتعريف بابن خلدون"** تناولنا فيه اسمه وكنيته ،مولده ونشأته ،أخلاقه وصفاته ،آثاره شيوخه ، رحلاته وفاته.

أما الفصل الثاني الموسوم بـ " **علم التصوف في المقدمة** " فقد تضمن مبحثين: المبحث الأول :ماهية التصوف عند ابن خلدون ودرسنا فيه تعريف التصوف لغة واصطلاحا ، علم التصوف قبل ابن خلدون، التصوف في المقدمة، مصادر التصوف عند ابن خلدون، أما المبحث الثاني : منهج ابن خلدون في بحث التصوف تطرقنا فيه إلى المنهج الصوفي، الذي ضمناه المقدمات والمجاهدات ثم تحدثنا عن موقفه من التصوف والذي انطوى على عناصر أخرى تمثلت في حقيقة علم المكاشفة كما يراه ابن خلدون ، موقفه من مصطلحات الصوفية وموقفه من الأحوال والموارد وأنهينا بحثنا بخاتمة هي عبارة عن نتائج مستنبطة من خلال فصلي البحث.

والله نسأل التوفيق

جامعة أبو بكر بلقايد – تلمسان-

كلية الآداب واللغات

قسم اللغة العربية وآدابها

2014/05/25

موسى نوال – مشرنن نبيلة

تمهـيـــد

إن التصوف يمثل جزءا كبيرا في تراث المسلمين وفي تاريخهم فالدارس للحضارة الإسلامية وللتاريخ الإسلامي سوف يواجه بمساحة واسعة لهذا الجانب البارز في حياة المسلمين باختلاف الأزمنة والأمكنة لدا لا بدا من دراسته والتعرف عليه والوقوف على سليمه من سقيمه .

وقد تناول ابن خلدون هذا الموضوع ودرسه دراسة نقدية،مثله مثل علماء الإسلام رحمة الله عليهم أجمعين[1].

حيث عاش في عصر عج بالصوفية ، وكان لهم فيه وجود بارز ، وتأثير واضح في مجريات الأمور، خاصة في السيطرة على قلوب عامة المسلمين وبعض حكامهم وانتشرت الطرق الصوفية في أرجاء العالم الإسلامي شرقية وغربية، فلا غرو إذا أن تستلفت هذه الظاهرة نظر ابن خلدون الذي أولاها انتباهه حيث درس ابن خلدون التصوف ورصد حركاتها ، وألف فيها كتبا مستقلة [2].

ومع أن المتصوفة في زماننا قد ازدادوا شأنا من ناحية عددهم ونحلهم وخرافاتهم الباطلة والمبتدعة والتي لم تأت بها الشريعة الإسلامية أصلا ، وضاع بينهم من كان على الحق والهدى ،وبالمقابل ظهر الجفاء ممن ينقدهم فردوا كل حق وباطل ورد منهم دون نظر وتمحيص،مع أن المفروض هو العمل بنصوص الزهد الواردة في القرآن والسنة الصحيحة واقتفاء آثار أعلام الأمة العاملين من أهل السنة والجماعة الذين عملوا وأيقنوا بما قال الله تعالى:" يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِ نَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَنَّكُمْ الحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلاَ يَغُرَنَّكُمْ بِاللهِ الغَرُورْ "[3].

وقوله "وَمَا هَذِهِ الحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الآخِرَة لَهِي الحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونْ"[4].

وعملوا أيضا بوصايا النبي صلى الله عليه وسلم الصَحيحة كقوله "ازهد في الدنيا يحبك الله ، وازهد فيما في أيدي الناس يحبك الناس"[5].

وقوله" اِسْتَقِيمُوا وَلَنْ تُحْصُوا"[6] وقوله" كُنْ فِي الدُّنْيَا كَأَنَكَ غَرِيبٌ أَوْ عَابِرْ سَبِيل وَعُدْ نَفْسَكَ مِنْ أَصْحَابِ القُبُورِ"[7].والآيات والأحاديث كثيرة في هذا الشأن لا يسع الوقت لسردها وبيان حال الرسول صلى الله عليه وسلم وصحابته في حياة الفقر والفاقة وهل كان ذلك بتعمد منهم على لزوم الفقر والزهد وعدم طلب المعيشة في الدنيا حتى يقام ركن الزكاة والجهاد وسائر أبواب الصدقات والقربات أم كان ذلك لهم منهجا كلما جاءهم المال أنفقوه في سبيل الله ،وانشغلوا بالعلم وبالجهاد وبطاعة الله، لكن التوسط والاتزان أيضا مطلوب وخاصة في هذا الزمان وذلك عملا لأحكام الشريعة في عصر المسلمون فيه هم أضعف بني البشر .

---

[1]- ينظر: مجموع الفتاوى ج11 ص 81.

[2]- منها كتابه شفاء السائل وتهذيب المسائل، ينظر ترجمة الكتاب في الفصل الأول من الرسالة في مبحث مؤلفاته وآثاره العملية.

[3]- سورة فاطر الآية 5.

[4]- سورة العنكبوت الآية 64.

[5]- أخرجه أصحاب السنن بأسانيد حسنة . و قال الألباني حديث صحيح أنظر السلسلة الصحيحة له رقم 944، وصحيح الجامع له ج1، 221 رقم 922.

[6]- أخرجه أصحاب السنن بأسانيد حسنة . وقال الألباني حديث صحيح أنظر صحيح الجامع له ج1، 225 رقم 953

[7]- أخرجه البخاري ج11/199 في الرقائق والترمذي في الزهد برقم 2334 باب ما جاء في قصر الأمل وصححه الحاكم على شرط الشيخين.

الفصل الأول

حياة ابن خلدون

الفصـــل الأول:

حياة ابــن خلدون

المبحث الأول: عصر ابن خلدون

أ- الناحية السياسية

ب- الناحية الاجتماعية

ج- الناحية الفكرية

د- الناحية الاقتصادية

المبحث الثاني: التعريف بابن خلدون

أ- اسمه وكنيته

ب- مولده ونشأته

ج- أخلاقه وصفاته

د- آثاره

ه- شيوخه

و- رحلاته

ز- وفاته

المبحث الأول: عصر ابن خلدون

بدأ الوهن يدب في أوصال العالم الإسلامي منذ القرن الحادي عشر ميلادي حيث عاش ابن خلدون إحدى هذه القرون المظلمة والتي كان كل شيء فيها يشير إلى أن شمس الحضارة الإسلامية آذنة بالغروب ، فلم يكن بوسع الناظر وأينما حول نظره ، أن يستشف أي بريق أمل أو بصيص نور إنما كانت حقيقة التقهقر والتراجع والانحطاط في شتى مجالات الحياة السياسية والاجتماعية والفكرية والاقتصادية تفرض نفسها عليه فرضا وتصفعه بحرارتها لقد توالت على العالم الإسلامي في هذا القرن كوارث عديدة[1].

[1]- حسين عاصي ، ابن خلدون مؤرخا ،دار الكتب العلمية،بيروت 1991 ط1، ص60

أ- الناحية السياسية:

كان العالم العربي مفككا مشتتا تحكمه دويلات صغيرة قامت هنا وهناك لا تكاد الواحدة منها تستقر حتى تسقط تحت ضربات ثائر ، أو خارج أو طامح وكان كل دجال يستطيع أن يصنع دولة من لا شيء فان لم يقدر أحداث الفتنة والخراب واتساع الذعر والفوضى في حياة السكان الآمنين.

كل يوم يسقط أمير ، ويظهر حاكم جديد والناس في حالة حرب على الدوام[1] لقد كان هذا القرن من الناحية السياسية أسوء القرون التي مر بها الإسلام فقد جاء هذا القرن عقب سقوط الخلافة العباسية في بغداد على أيدي المغول المتوحشين وشهد القرن ذاته هجوم التتار بقيادة السفاك تيمورلنك على البلاد الإسلامية في المشرق ، كما شهد المغرب تحفز النصارى للقضاء على الدويلات الباقية للإسلام في الأندلس[2].

كان الإسلام يمر آنذاك بتلك الفترة التي تلت سقوط الخلافة العباسية وسبقت ظهور الدولة العثمانية ، وهي فترة يصعب أن تمر على المسلمين دون أن يستقروا بالشيء الكثير

من التشاؤم ومرارة الخيبة ، لقد افتقدوا حينذاك الدولة الكبيرة المنتصرة التي تكافح عن دينهم وترفع اسمه عاليا بين الأمم[3].

أما المطالبة بالملك فلم تعد تستند على سند نظري أو ديني وإنما على القوة فقط على الشوكة والإتباع. أي على " العصبية " وحدها على حد تعبير ابن خلدون[4].

ففي أوروبا كانت بشائر النهضة تلوح في الأفق ، أما بالنسبة للدولة الإسلامية فقد كانت هذه الفترة بالنسبة لهم فترة تدهور وانحدار.

إذ كان معظم بلاد الأندلس قد خرج من حوزة العرب وأصبح تحت حكم الاسبان بما في ذلك أهم مراكز الحضارة الأندلسية كطليطلة وقرطبة واشبيلية.

---

[1]- أبو القاسم محمد كرو ، العرب وابن خلدون ، دار مكتبة الحياة ، بيروت ط 2، 1981، ص20.
[2]- ابن خلدون ، تاريخ ابن خلدون، تعليق وتحقيق ، تركي فرحان المصطفى ، دار النفائس الرياض، طبعة ملونة، ص 8 – 9 .
[3] - المرجع نفسه ، ص 8،9 .
[4] - حسين عاصي، ابن خلدون مؤرخا ، ص 61،62.

وكانت جماعات كثيرة من سكانها العرب قد جلت عنها إلى المغرب ، ولم يبق تحت حكم العرب هناك سوى قطعة صغيرة في الجنوب الغربي من الأندلس ، وكان يحكم هذه البقية الباقية من الأندلس بنو الأحمر ، إلا أن أمراء هذه الأسرة نفسها كثيرا ما كانوا يتنافسون على الحكم ويتخاصمون فيه إلى حد الاقتتال[1].

أما في المغرب العربي فقد انهارت دولة الموحدين في أواخر القرن 7 هـ وانقسمت تلك المنطقة إلى ثلاث دويلات فقامت في تونس وكان يطلق عليها عندئذ افريقية دولة بني حفص وعاصمتها تونس وقامت دولة بني عبد الواد في المغرب الأوسط وعاصمتها تلمسان.وكانت هذه الدولة اضعف الدول الثلاث وأكثرها استهدافا للفتن والانقلابات ، بينما قامت دولة بني مرين وهي أقواها جميعا في المغرب الأقصى وعاصمتها فاس.ولم يقف الانقسام والتفتت عند هذا الحد بل قامت إمارات صغيرة في ظل هذه الدولة وخارجها على يد بعض الخوارج [2].

وقد عبر ابن خلدون عن الاضطراب في المغرب ابلغ تعبير حينما قال: « وأما لهذا العهد ،وهو آخر المائة الثامنة ، فقد انقلبت أحوال المغرب الذي نحن شاهدوه ،وتبدلت بالجملة ، واعتاض عن أجيال البربر أهله على القدم بمن طرا فيه من لدن المائة الخامسة من أجيال العرب بما كسروهم وغلبوهم وانتزعوا منهم عامة الأوطان، وشاركوهم فيما بقي من البلدان لملكهم .هذا إلى ما نزل بالعمران شرقا وغربا في منتصف هذه المائة الثامنة من الطاعون الجارف الذي تحيف الأمم وذهب بأهل الجيل ،وطوى كثيرا من محاسن العمران ومحاها، وجاء للدول على حين هرمها من سلطانها ، وتداعت إلى التلاشي والاضمحلال أحوالها وانتقص عمران الأرض بانتقاص البشر، فخربت الأمصار والمصانع ، ودرست السبل والمعالم وخلت الديار والمنازل وضعفت الدول والقبائل، وتبدل الساكن ،وكأني بالمشرق قد نزل به ما نزل بالمغرب، لكن على نسبة ومقدار عمرانه ، وكأنما نادى لسان الكون في العالم بالخمول والانقباض فبادر بالإجابة. [3]

ولقد قدر لابن خلدون أن يعيش في خضم هذه الأحداث والمؤامرات لقد بدأت حياته السياسية بالعمل لدى صاحب تونس، لينتقل بعد ذلك إلى قصور المرينيين في فاس ثم إلى بلاط ابن الأحمر بالأندلس التي عاد منها ليتولى منصب الحجابة لدى أمير بجاية ثم ليعتزل السياسة بعد ذلك لاجئا إلى

[1]- خليل شرف الدين، في سبيل موسوعة فلسفية ، منشورات دار و مكتبة الهلال بيروت ، 1983، ص 25،26.
[2]- زينب محمود الخضيري ، فلسفة التاريخ عند ابن خلدون ، دار الثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة، 1991ص 17.
[3]- حسين عاصي ، بن خلدون مؤرخا ، ص 60 ، 61.

القبائل العربية مساندا صاحب تلمسان طورا ، وصاحب طورا آخر ، إلى أن ينتهي به المطاف أخيرا إلى قلعة ابن سلامة حيث سيشرع في تأليف كتاب العبر قبل أن ينتقل إلى تونس أولا ، ويشد الرحيل إلى مصر حيث سيستقر إلى أن يوافيه الأجل المحتوم .

وإذا فان الطابع العام الذي ساد الحياة السياسية في العالم الإسلامي خاصة منه البلاد المغربية ، خلال هذا القرن هو الفوضى وعدم الاستقرار وما ينتج عن ذلك من تدهور الأوضاع الاقتصادية، الاجتماعية والثقافية[1].

ب- الناحية الاجتماعية:

هذه الظاهرة ظاهرة الفوضى السياسية التي طبعت هذه الحقبة من تاريخ المغرب العربي كانت نتيجة أسباب وعوامل موضوعية، اجتماعية واقتصادية وظروف تاريخية معينة.

لقد كان مجتمع المغرب العربي في القرون الوسطى مجتمعا قبليا فسكان البلاد هم في الأغلب عبارة عن مجموعات من القبائل المتحالفة حينا . والمتطاحنة حينا آخ.

والوحدة الاجتماعية هي القبلية التي قد تكبر بالتحالف أو بغيره حتى تغطي منطقة بكاملها وتصبح قوة عسكرية ، سياسية يحسب لها حسابها ، ذلك لأن حمل السلاح في هذا العصر لم يكن مقصورا على فئة دون أخرى فأفراد القبيلة الذكور كانوا –كلهم – محاربين وغالبا ما كان دورهم الاجتماعي تابعا لدورهم الحربي قوة وضعفا .

إن القوة الجسدية ، والقدرة على المخاطرة والمعرفة بأساليب الحرب ، هي المؤهلات الضرورية للارتفاع إلى مركز القيادة في القبيلة[2].

وبمقدار ما تتوفر القبيلة على مجموعة مهمة من هؤلاء الفتيان المحاربين الأقوياء الشجعان ، بمقدار ما يتوسع نفوذها ، وتعظم سلطتها ، فتستطيع هكذا الوقوف في وجه المغيرين من أبناء القبائل الأخرى، أو المهاجرين من الأسرة الحاكمة ، ومن ثم كان تناصر وتعاضد هؤلاء الفتيان بمثابة الأسوار في المدن والأمصار كما يقول ابن خلدون « إن القبيلة في هذا العهد كانت عبارة عن جيش

[1]- محمد عابد الجابري ، فكر ابن خلدون العصبية والدولة، مركز الدراسات الوحدة العربية، بيروت لبنان ، ط 5، 1992، ط6 1994 ، ص 23.
[2]- حسين عاصي ، ابن خلدون مؤرخا، ص29.

يعيش دوما على أهبة القتال،وإلا سقطت بين عشية وضحاها فريسة في يد المغيرين فيضمحل كيانها وتصبح تابعة وأحيانا مندمجة ، في الكيان القبلي المتغلب عليها[1].

ولهذه الظاهرة ظاهرة الحرب القبلية الدائمة في مجتمع المغرب العربي في القرون الوسطى عدة عوامل متداخلة متشابكة وسواء كان العنصر الأساسي في هذه الفوضى الحربية القبلية راجعا إلى الدور التخريبي لقبائل بني هلال العربية التي اكتسحت أوطان البربر ودفعت بهم إلى الجبال كما يرى كثير من المؤرخين وعلى رأسهم ابن خلدون، أو كان راجعا إلى تحول الطرق التجارية من الصحراء كما يذهب إلى ذلك بعض الباحثين في العصر الحاضر فلقد كانت هناك عوامل أخرى أساسية يجب أخذها بعين الاعتبار و منها[2]:

- **عامل طبيعي جغرافي** : ذلك لان الإنسان في هذا العصر وفي هذه المنطقة بالذات كان ما يزال يعيش عالة على الأرض وخيراتها البارزة ، وسواء كانت القبيلة تعيش بالرعي أو الزراعة ، فان كيانها الاقتصادي يعتمد أساسا على خصب التربة وتوفر العشب والماء ، فإذا وجدت القبيلة نفسها في ارض قاحلة أو قليلة الخصال ، فإنها تجد نفسها مضطرة إلى الانتقال إلى مكان آخر مما يجعلها تصطدم مع القبائل صاحبة الأرض الخصبة ، هؤلاء البدو الرحل ممن لا وطن لهم كانوا يعيشون في الغالب بمنأى عن السلطة المركزية (الأسرة الحاكمة) فلا يدفعون ضرائب ولا يخضعون لمراقبة ، وإنما تكتفي منهم الدولة بإعلان الولاء والتبعية. أما إذا ضعفت السلطة المركزية وعجزت عن فرض نفوذها فان هذه القبائل سرعان ما تتجه إلى المناطق الخصبة وتتوغل في أراضي الدولة مزاحمة لأهلها.

والنتيجة هي الحرب الدائمة التي تنتهي إما بفناء هذه القبائل وفرارها إلى الصحراء أو انتصارها واستيلائها على السلطة والحكم وهذا العامل الجغرافي يزداد مفعوله إبان الكوارث الطبيعية من جدب ومجاعة ، أو في الظروف الاجتماعية الغير السليمة كظروف انتشار الأمراض المعدية أو حدوث هزائم حربية وما شابه[3] .

[1]- المرجع السابق، ص 29
[2]- نفسه ، ص69.
[3]- نفسه ، ص70.

- عامل تنظيمي سياسي اجتماعي:

بناء على ما قدمنا فان استقرار الحكم مرهون بقدرة الحاكم على المحافظة على الوحدة والانسجام داخل قبيلته والمحافظة على ولاء القبائل الأخرى له أو الخاضعة لسلطانه بالقوة والغلبة . وفي كلتي الحالتين يتوقف نجاحه على مدى توفر المال لديه. وكان المال في هذا العصر مصدره إما الغزو وإما التجارة ، لان الزراعة لم تكن تدر فائضا ، فان فشل السلطان في إحدى غزواته أو حدثت خسارة في تجارته التي يشرف عليها مباشرة أو بالواسطة يصبح مهددا في سلطته وسلطة عشيرته[1].

ومن هنا كان التراجع و الهرم في حكم أسرة معينة يبدأ غالبا إما بهزيمة حربية كبرى وإما بنقصان عوائد التجارة بسبب تحول الطرق التجارية وعدم تمكنه من حفظ الأمن في المناطق النائية التي تمر عبرها القوافل التجارية [2].

من جهة أخرى كانت صعوبة المواصلات تجعل من إشراف السلطان على عمال الأقاليم أمرا متعذرا مما أتاح للكثيرين منهم أن يستزيدوا من النفوذ ويتخذوا الأشياع والأتباع، حتى إذا واتت الفرصة نتيجة موت السلطان أو هزيمته هزيمة ساحقة في معركة ما ، استقل هؤلاء العمال بالأمر وانشئوا لأنفسهم دولا. وهذا ما حدث للموحدين إذا انقسمت إمبراطوريتهم بين عشية وضحاها إلى دويلات وإمارات متطاحنة وكخطوة وقائية كان السلاطين والحكام يعمدون من حين إلى آخر إلى تشريد عماله ومصادرة أموالهم والزج بهم في السجون ، أو فرض الإقامة الجبرية عليهم، وكلها تدابير تساعد أحيانا على اتقاء شر العمال، لكنها في أحيان أخرى كثيرا ما تكون سببا في إذكاء نار الفتن لان العامل قد يستبق إلقاء القبض عليه بإعلان الثورة أو قد يعمد أنصاره إن اسر إلى الثورة والمطالبة بإطلاق سراحه وإعادته إلى وظيفته[3].

[1]- المرجع السابق، ص 71

[2]- محمد عابد الجابري ، العصبية والدولة معالم نظرية خلدونية في التاريخ الإسلامي ، ص 50.

[3]- حسين عاصي، ابن خلدون مؤرخا، ص 73.

ج- الناحية الفكرية:

هذه الأوضاع السياسية والاجتماعية القلقة المضطربة ما كان لها أن تساعد على قيام حركة فكرية نشيطة ، وإذا كان النشاط الفكري الواسع الذي شهده العالم الإسلامي في المشرق أو المغرب قبل هذا القرن راجعا في الدرجة الأولى إلى تشجيع الخلفاء والملوك والحكام ، فان الأوضاع التي عاشها هؤلاء خلال هذا القرن لم تكن من الاستقرار بحيث تسمح لهم بالتفكير في العلم وأهله.

لقد كانوا مشغولين ، كما رأينا بعروشهم المتاعية ، ثم إن تحركات البدو وتهديدهم المدن والأمصار في أقطار المغرب العربي لم تكن تسمح بطبيعة الحال لآية حركة فكرية إن تنشط وتنمو[1].

شهد العالم الإسلامي عامة، والمغرب العربي خاصة ، تراجعا علمي وأدبي شامل وكان التقليد واجترار الماضي بأساليب مختلفة هو شغل المنصرفين إلى الأدب والعلم ، وهكذا أخذ الظلام يغشى العقول، والجهل يرين على النفوس والحياة تسير بخطى سريعة نحو الانحطاط[2].

لقد ترك لنا ابن خلدون خلال القرن الثامن الهجري وصفا دقيقا وشاملا لحال العلم وأهله في عصره كما قدم لنا صورة حيث كشف فيها عن وقوف الفكر الإسلامي وجموده واقتصاره على اجترار ما قرره السلف في ميدان العلوم الدينية وانصرافه كلية عن العلوم العقلية وعلى العموم فان النشاط الفكري في هذا العصر انحصر في جانبين اثنين هما:

أ- الدراسات الفقهية الجامدة التي اقتصر العمل فيها على الملاحظات .

ب- التصوف الديني الذي انقلب إلى شعوذة وتضليل[3].

لقد وصل المتصوفة في هذا القرن إلى أسوء الحالات ، وبلغ استحواذ هؤلاء المتصوفة المشعوذين على العامة إلى درجة أصبحوا معها يشكلون قوة يحسب لها حسابها في الميدان السياسي والديني ، لقد أصبح الملوك وكذا رجال الدين من الفقهاء ، يخضعون لمدعي التصوف ويبالغون في تعظيمهم وإرضائهم ويخضعون لنزواتهم وشهواتهم[4].

---

[1]- محمد عبد الله عنان ، ابن خلدون ،حياته وتراثه الفكري، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر،القاهرة، ط3،1985،ص 48، 49.
[2]- أبو القاسم محمد كرو، العرب وابن خلدون، ص 20.
[3]- حسين عاصي ، ابن خلدون مؤرخا ، ص76.
[4]- محمد عابد الجابري ، فكر ابن خلدون العصبية والدولة ، ص 32.

إن انتشار العقلية القبلية الساذجة والشعوذة الصوفية ، جعل التفكير الخرافي يسيطر على روح العصر، مما جعل هذا القرن والقرون التي تليها عصر الانحطاط المفجع عصرا طابعه العام سيطرة التفكير الخرافي والإعراض عن كل نشاط فكري سليم .

ولقد انعكست روح هذا العصر وما يسيطر فيها من تفكير خرافي على عقول الناس خاصيتهم وعامتهم ، ما عدا نخبة من العلماء والمفكرين كانت تعيش غالبا في بلاد الملوك والأمراء ، الأمر الذي حال بينهما وبين الجهر بآرائهم والتأثير في الأوضاع السائدة[1].

د- الناحية الاقتصادية:

لقد تميزت الوضعية الاقتصادية للمغرب الإسلامي في هذا العصر بسيطرة الفئات الخاصة على الصناعات المحلية والاستهلاكية وعلى التجارة[2].

فقد تباطأت تجارة الذهب بين افريقية الشمالية وبين السودان مما خلف لكثير من العقبات التي عرفتها الدول المغربية في هذا القرن ، ومن اجل محاولة الحفاظ على الأرباح التي كانوا يجنونها من التجارة ، استخدم الملوك السبل المغلة على المدى القصير والمفلسة على الأجل الطويل[3]. مما دفع بالسلطة إلى مضاعفة الجباية التي أثرت على الفلاحين بصورة خاصة ، ودفعتهم إلى قبض أيديهم عن فلاحة الأرض والتقليل من إنتاجهم للحيلولة دون انتزاعه منهم لفائدة السلطة.

وقد أدى ذلك إلى ظهور المجاعات الحادة التي لم تنجح حركة الازدهار النسبي التي أحدثتها هجرة الأندلسيين في بعض مدن المغرب الإسلامي في التقليل من حدتها تلك الحدة التي لم تزدها حياة الترف والبذخ والتبذير التي كان يحياها أولئك الخواص إلا تضاعفا[4].

إن هذه الوضعية الاقتصادية التي كان يمر بها المغرب الإسلامي تتضح كل مخاطرها إذا ما تذكرنا أن أوربا التي لم تكن ظروفها تختلف كثيرا عن ظروف العالم الإسلامي قد بدأت تخطط لخنق العالم الإسلامي تجاريا وتحويل طرق التجارة العالمية من موانية في البصرة والإسكندرية وتونس

[1]- المرجع السابق ، ص 32،33.
[2]- البخاري حمانة ، ابن خلدون ، منشورات وزارة الثقافة والسياحة ، الجزائر، 1985، ص 7.
[3]- ابن خلدون ، تاريخ ابن خلدون ، ص 9.
[4]- البخاري حمانة ، ابن خلدون ، ص.7.

وبجاية والجزائر إلى جنوة ولشبونة قبل تحويلها نهائيا من البحر الأبيض المتوسط إلى المحيط الأطلسي في اتجاه القارة الأمريكية[1].

تلك هي على العموم ابرز معالم هذا العصر، السياسية منها ، والاجتماعية والفكرية والاقتصادية والتي القى عليها ابن خلدون الضوء وكان خير شاهد على عصره فهو تعرف إلى أحداثه عن كثب، ودرس على علمائه وعاشرهم واحتك بهم ، وعاش شطرا كبيرا من حياته في قصور الحكام فتعرف على أحوالهم وأسلوب معيشتهم، وشاركهم اهتماماتهم ومشاغلهم ، كما قضى شطرا آخر بين القبائل فاحتك بزعمائها وبإفرادها وتعرف على أسلوب معيشتها وشاركها مشاكلها ومشاغلها ونجح في التأثير فيها وتوجيه ولائها لهذا الطرف أو ذلك .مما كان اكبر الأثر في تكوين وتحديد نظرته إلى الكون والإنسان، إلى الاجتماع والعمران والتاريخ[2].

[1]- المرجع السابق ، ص 8.
[2]- حسين عاصي ، ابن خلدون مؤرخا ، ص77.

المبحث الثاني: التعريف بابن خلدون

أ- اسمه وكنيته:

هو أبو زيد ولي الدين عبد الرحمن بن أبي بكر محمد بن أبي عبد الله محمد بن الحسن بن محمد بن جابر بن محمد بن إبراهيم بن عبد الرحمن بن خلدون

اكتسب كنيته أبي زيد من اسم ابنه الأكبر على جاري عادة العرب في الكنية ولقب بولي الدين بعد توليه وضيفة القضاء في مصر، وقد اشتهر بابن خلدون نسبة إلى جده التاسع خالد بن عثمان وهو أول من دخل من هذه الأسرة بلاد الأندلس مع الفاتحين من العرب واشتهر فيما بعد باسم خلدون حريا على طريقة أهل الأندلس والمغرب المتمثلة في إضافة (واو ونون الأعلام) للدلالة على تعظيمهم لأصحابها مثل : خالد –خلدون – زيد – زيدون[1].

أما عائلة خلدون فهي عربية الأصل تنتسب إلى بني حجر من ملوك كندة كانت تنزل حضر موت إلى أن ظهر الإسلام وامتدت فتوحاته حتى اسبانية فهاجر إليها رأس الأسرة الحضرمية في أوائل القرن الثامن ، وعن نسب عائلة خلدون في الإسلام فيرجع إلى وائل بن حجر الصحابي المعروف الذي باركه الرسول صلى الله عليه وسلم عندما وفد عليه مؤمنا برسالته فبسط له رداءه وأجلسه وقال: اللهم بارك في وائل بن حجر وولده وولد وولده إلى يوم القيامة[2].

ونورد كلام ابن خلدون بحروفه قال بعد ذكر جدوده العشرة: «لا اذكر من نسبي إلى خلدون غير هؤلاء العشرة ويغلب علي الظن أنهم أكثر وانه سقط مثلهم عددا، لان خلدون هذا هو الداخل إلى الأندلس فان كان أول الفتح فالمدة لهذا العهد سبعمائة سنة فيكونون زهاء العشرين ، ثلاثة لكل مائة، كما تقدم في أول، الكتاب الأول، ونسبنا خضر موت من عرب اليمن إلى وائل بن حجر من أقيال العرب معروف وله صحبه»[3].

---

[1]- فؤاد أفرام البستاني، مقدمة المقدمة ، ص 1.

[2]- حسين عاصي ، ابن خلدون مؤرخا ، ص 7 -9.

3- محمد بن ثاويت الطنجي ، رحلة ابن خلدون ،دار السويدي ،أبو ظبي ط1 2003، ص49- 50.

ب- مولده ونشأته:

ولد عبد الرحمن بن خلدون بغرة رمضان سنة 732 هـ، الموافق 1332م بتونس في أسرة أندلسية نزحت من الأندلس إلى تونس في أواسط القرن السابع الهجري .

اشتهرت أسرته بعراقتها في السياسية والعلم ، تلك العراقة التي يعد المؤرخ ا بن حيان أصدق من وصفها حيث قال:«بيت ابن خلدون إلى الآن في إشبيلية نهاية النباهة ولم تزل أعلامه بين رئاسة سلطانية ورئاسة علمية»[1].

وإذا كان ابن خلدون سليل أسرة عريقة نابهة وبيت علم ورياسة ، فنشأ في مهد هذا التراث الذي تلقاه عن ّأسرته ، وخاصة عن أبوه الذي كان معلمه الأول حيث قام بتربيته أحسن قيام لما كان عليه من شهرة علمية وورع.

كما تتلمذ على يد أساتذة وعلماء أجلاء كان لهم الفضل الأكبر في تعليمه بداية في جامع الزيتونة وكان أولهم شيخه ابن برال الذي قرأ عليه القرآن بالقراءات السبع المشهورة إفرادا وجمعا في إحدى وعشرين ختمة كما درس مختلف العلوم العقلية من رياضيات وفلك وفن وطبيعيات ومنطق وفلسفة على يد أبو عبد الله محمد بن إبراهيم الآبلي التلمساني.

ولم يقتصر تعليم ابن خلدون على علم دون آخر ولا على بعض دون البعض الآخر لقد تعلم وتعمق في كل علوم عصره العقلية منها والنقلية وهذا ما أهله لأن يصبح فقيها ومؤرخا وكاتبا وشاعرا وفيلسوفا وحاجبا ودبلوماسيا....الخ.[2]

[1]- البخاري حمانة ، ابن خلدون ،ص11.
[2]-ادريس خضير ، التفكير الاجتماعي الخلدوني وأثره في علم الإجماع الحديث ، موفم للنشر الجزائر 2007 ص 13..

ج- أخلاقه وصيفاته:

ج1- الثقة بالنفس :

عاش ابن خلدون في زمن تقسم فيه العالم الإسلامي إلى دويلات وإمارات صغيرة وتتابعت الأسر المالكة على العروش الوطيئة بسرعة عجيبة ،فكان يفوز بالحكم صاحب النفوذ الفردي والشخصية البارزة، الذي يغامر في طلب المعالي ولو عن طريق الهلاك واثقا بنفسه معولا على قدرته لاغير.

فتأثر ابن خلدون بهذه البيئة وكان له من سلفائه أقيال كندة.ووزراء الأندلس ميراث رفعة وطموح إلى المناصب العالية ، فسار على آثارهم ،لا يتكل إلا على نفسه ويثق إلا بما أوتي من البلاغة السياسية وأساليب الدس[1].

ج2- الدهاء، الأنانية، حب الظهور:

وكان بحكم الطبع أن ترعرعت فيه هذه المبادئ ،ووضحت أمامه تلك المسالك التي يعدها الأخلاقيون من العيوب الحاطة ، ويرفعها السياسيون إلى مقام الدهاء والتدبير فأخذ بالتنقل في البلاطات ، العديدة مدبر المؤامرات ،مهيئا الاتفاقات السرية بأي شكل كانت وبأي نتيجة أتت[2]، شرط أن تنيله بغيته من الاستيلاء على الحكم ،وتوصله إلى مركزه بين كبار القوم.

ولم يكن ليهتم بخير الوطن الذي يخدمه إذ لا وطن يعرف في ذلك العهد ، ولا مصلحة عامة تخدم ، إنما كان جل اهتمام كبار الرجال من أمراء ووزراء أن يخدموا نفوسهم.

فعلى هذا المبدأ سار ابن خلدون ، فكان أنانيا وهو لا يدرك قبح الأثرة وحب الذات لأنه لم يعش في عصر يدرك قبح ذلك .وبيان هذا الأمر ما نقرأه في ترجمته التي كتبها بنفسه، من الإسهاب في تنقلاته بين الدويلات المختلفة ، وتركه أميرا كان قد خدمه في سبيل إرضاء أمير آخر.[3]

[1] - فؤاد أفرام البستاني مقدمة المقدمة ، ص 14
[2]- المرجع نفسه ، ص 14.
[3]- نفسه ،ص15

وقد ولدت هذه الصفات في ابن خلدون صفة أخرى طالما ميزت عظماء الرجال ، وهي حب الظهور ، وأي دليل أوضح على ذلك من تلك الترجمة الطويلة لحياته التي أطال فيها بيان كل ما يخصه، دون أن يعفينا من قراءة الرسائل العديدة التي كان يتبادلها مع علماء زمانه، والقصائد الطويلة التي كان يمدح بها الملوك في الأعياد الرسمية.[1]

ج3- تأثره بالدين الإسلامي:

رأينا أن أول دروس ابن خلدون كانت ، كدروس كل مسلم ، في القرآن وشروحه، والفقه ،وواجبات المتدين.فأثرت فيه تلك التربية الدينية طول حياته وظهر تأثيرها في أحكام المؤرخ ، مما دفع فلنت إلى القول ، في كتابه « تاريخ فلسفة التاريخ». أن ابن خلدون كان صادق التقوى ، راسخ الإيمان ،وهو اعتقاد أنكره عليه الدكتور طه حسين بحجة أنه لم يأنف من ارتكاب الخيانة التي حرمها القرآن متى رآها وسيلة لينله السلطة.

على أن الدكتور لو أمعن نظره في عقلية ذاك العصر ، لأدرك أن تلك الأعمال التي تعدها كتب الدين والأخلاق في باب الخيانة ، لم تكن تعتبر في تلك الظروف إلا من الطرق المشروعة للفوز بالسلطة ، بل هي تعتبر اليوم في عصرنا المتمدن إلا من باب الدهاء السياسي . ثم إن ابن خلدون نفسه لا يموه في ذكرها ولا يتكلف إخفاءها ولا التخفيف منها.

فينتج إذن أن هذا الاعتراض لا يمنع كون ابن خلدون قد تأثر وتأثر جدا بتربيته الدينية ، حتى في إطلاق أحكامه كما قدمنا.[2]

[1]- المرجع السابق، ص15

[2]- نفسه،ص15، 16.

د- أثاره:

يمكن أن نقسم هذه الآثار إلى قسمين:

د1- شعرا:

نظم ابن خلدون عدة قصائد في مدح الملوك والأمراء الذين خدمهم ، وله أيضا مراسلات شعرية مع الوزير لسان الدين بن الخطيب ،وقد ذكر شيئا كثيرا من ذلك في ترجمة حياته وشعره يضطرب على حد قوله، بين الجودة والركاكة وهو صواب[1].

د2- نثرا:

ذكر له صديقه لسان الدين بن الخطيب في كتابه « الإحاطة في تاريخ غرناطة ». عددا من الكتب، وعلق عليها بإعجاب شديد منها:

- لباب المحصل[2] في أصول الدين تصنيف العبد الفقير إلى الله الغني به عن سواه الراجي عفوه، عبد الرحمن بن محمد بن خلدون الحضرمي، غفر الله له ولوالديه ولجميع المسلمين[3].

- شرح قصيدة« البردة» المشهورة للبويصري .

- شرح أرجوزة في الفقه لابن الخطيب.

- تلخيص بعض رسائل ابن رشد.

- تلخيص لبعض مؤلفات ابن عربي، وهي المؤلفات التي وصلنا منها «اللباب».[4]

- كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، وهو أكبر كتاب له[5].

[1]- المرجع السابق ،ص17.
[2]- كتاب الرازي في الفقه المعروف « بالمحصل».
[3]- محمد عبد الله عنان، ابن خلدون حياته وتراثه الفكري ،ص 164.
[4]-البخاري حمانة، ابن خلدون ، ص 26.
[5]- المرجع نفسه ، ص 26.

وقد قسم المؤلف كتابه هذا إلى مقدمة وثلاثة كتب على النحو التالي:

1- المقدمة في فضل علم التاريخ، وتحقيق مذاهبه، والإلماع بمغالط المؤرخين.

2- الكتاب الأول :في العمران ، وذكر ما يعرض فيه من العوارض الذاتية من الملك والسلطان و الكسب، و المعاش والصنائع، والعلوم ، وما لذلك من العلل والأسباب وهذا الكتاب مع مقدمته هو المعروف «بمقدمة ا بن خلدون».

3- الكتاب الثاني: في أخبار العرب وأجيالهم ودولهم، منذ مبدأ الخليقة إلى هذا العهد القرن الرابع عشر، وفيه الإلماع ببعض من عاصرهم من الأمم المشاهير ودولهم:مثل النبط، السريانيين، الفرس، بني إسرائيل، القبط، اليونان، الروم ، الترك و الفرنجة.

4- الكتاب الثالث: في أخبار البربر ومواليهم من زناتة، وذكر أوليتهم وأجيالهم ، وما كان لهم بديار المغرب خاصة من الملوك والدول وفي آخر هذا الكتاب تكون عادة ترجمة حياة ابن خلدون بقلمه المسماة :«التعريف بابن خلدون». [1]

هـ – شيوخه:

كرس ابن خلدون في سيرته الذاتية ، التي كتبها لنفسه فصولا طوالا لمراحل تكوينه الثقافي ، محددا أصولها وأهليتها ، واصفا بالتفصيل المعارف التي هضمها تدريجيا[2].

وقد عني ابن خلدون بذكر أساتذته الذين تلقى منهم علومه في صباه كان معلم ابن خلدون الأول أبوه الذي علمه القرآن الكريم ثم كان تعليمه على يد مجموعة من الشيوخ نذكر منهم:

- الشيخ محمد بن برال ت:749 هـ : هو أبو عبد الله بن سعد بن برال القرشي من أصل أندلسي ، كان متضلعا في القراءات[3].

- أبو عبد الله ألحصائري: هو أبو عبد الله بن العربي الحصائري كان أستاذا مشهورا في النحو[1] ، له شرح على قصيدة البردة للبويصري.

[1]- فؤاد أفرام البستاني مقدمة المقدمة ،ص18.
[2]- حسين عاصي ، ابن خلدون مؤرخا ص 17.
[3]- السخاوي ، الضوء اللامع في أعيان القرن التاسع ، القاهرة ، د، ط ، 1353 هـ، ج4 ، ص 147.

- القاضي بن عبد السلام ت 749 هـ : هو أبو عبد الله محمد بن عبد السلام المنستري الهوراي، درس موطأ الإمام مالك، ومختصر ابن الحاجب[2] .

- محمد بن بحر: هو أبو عبد الله محمد بن بحر ، كان بحرا زاخرا في علوم اللسان.

- أبو القاسم عبد الله بن رضوان المالقي: ولد بالأندلس ،عمل بديوان الإنشاء في عهد أبي الحسن، ثم عين في وضيفة الإنشاء في عهد أبي سالم إلى أن توفي سنة 748 هـ[3].

- أحمد بن القصار ت 808 هـ : وهو أبو العباس أحمد بن محمد بن القصار.

- محمد بن إبراهيم الآبلي: ولد بتونس سنة (681 هـ) رحل إلى المشرق ثم عاد إلى تلمسان ، ولما أراد السلطان أبو حمو الأول[4] تعيينه في عمل إداري فر إلى فاس وبها توفي[5] .

- عبد المهيمن الحضرمي: ولد بسبة سنة (685 هـ) كان متضلعا في اللغة العربية كما كان كاتبا مشهورا ، توفي بالطاعون سنة 749 هـ[6].

- محمد بن علي بن سليمان السطي: ولد بفاس ، وكان متضلعا في الفقه على المذهب المالكي أقام في تونس ما بين (748 -750 هـ).توفي غريقا سنة 750 هـ [7].

- أبو العباس أحمد بن محمد البطرني أخذ عنه القراءات السبع.

- أبو عبد الله محمد بن شواش الزرزالي.

- شمس الدين أبي عبد الله محمد بن جابر بن سلطان القيسي الوادياشي ، إمام المحدثين بتونس، صاحب الرحلتين (673- 749).[8]

- أبو عبد الله محمد بن عبد الله الجياني، أخذ عنه الفقه[9].

---

[1]- ابن خلدون عبد الرحمن ، التعريف بابن خلدون ، دار الكتاب اللبناني ، بيروت ، لبنان ، د، ط 1979 ص 19.

[2]- هو المختصر في الفقه المالكي يسمى المختصر الفقهي والفرعي ،والجامع بين الأمهات ألفه عثمان بن عمر بن يونس ،المعروف بالحجاب المصري تحدث عنه ابن خلدون في المقدمة .

[3]- عبد الرحمن بن خلدون ، التعريف بابن خلدون ، ص 29.

[4]- هو أبو موسى الأول بن السلطان أبي سعيد بن أبي يحي يغمراسن الزياني ، أحد السلاطين لدولة بن زيان.

[5]- يحي بن خلدون ،بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد ، ت: عبد الحميد حاجيات، المكتبة الوطنية الجزائر ، د،ط ، ج1،ص 120.

[6]- عبد الرحمن بن خلدون، كتاب العبر، دار الكتاب اللبناني، بيروت، د،ط،1957م،ج7، ص517/515.

[7]- المقري ،نفح الطيب،دار مكتبة الحياة، بيروت ،ج5،ص 241.

[8]- رحل إلى المشرق مرتين ، ولذلك سماه ابن خلدون صاحب الرحلتين.

[9]- محمد بن تاويت الطنجي، رحلة ابن خلدون ص 65.

- أبو القاسم محمد القصير ، قرأ عليه كتاب التهذيب لأبي سعيد البرادعي ، مختصر المدونة وكتاب المالكية ، وتفقه عليه[1].

- الشيخ أبو العباس أحمد بن محمد بن علي الزواوي، إمام المقرئين بالمغرب[2] .

- الشيخ أبي موسى عيسى بن الإمام ،أخذ عنه المنطق والأصلين[3] .

- العالم الشهير أبا العباس بن البناء، حصل عنه سائر العلوم العقلية[4].

و- رحلاته:

لم يدون عبد الرحمن بن خلدون رحلته في كتاب مستقل بل أوردها من خلال حديثه عن نفسه في الملحق الذي وضعه في آخر كتابه (العبر).الذي نشره تحت عنوان التعريف بابن خلدون ورحلته غربا وشرقا ، مما ساعدنا على تتبع مراحل رحلاته، منذ خروجه من تونس حتى قبيل وفاته بأشهر.

فعندما أنهى ابن خلدون دراسته على يد أساتذته، أخذ يتطلع إلى الفرصة التي تسنح له للرحلة إلى الأقطار العربية ، في طلب العلم والاستزادة من العلوم و المعارف.

ولــعل السبب الذي شجع ابن خلدون على مغادرة تونس حادثان كان لهما أثر كبير في تغيير مجرى حياته، أما الحادث الأول فهو وباء الطاعون الــذي انتشر فـــي المغرب العربي سنــة (749 ه)

، وقضى على خلق كثير ، وكان من بين من قضي عليهم والدا ابن خلدون وجميع شيوخه الذين درسوه[5]، هذا الوباء الذين طوى البساط بما فيه .

أما الحادث الآخر ، فهو هجرة معظم العلماء من تونس إلى المغرب الأقصى في صحبة السلطان أبي الحسن.

[1]- المرجع السابق ص 65
[2]- نفسه ص 66
[3] - نفسه ص 67
[4] - نفسه ص 68
[5]- عبد الرحمن بن خلدون ، التعريف بابن خلدون، ص57.

ولما عهد إليه الوزير "ابن تافراكين " صاحب تونس بوظيفة " كتابة العلامة "[1] فلم يتردد في قبول هذه الوظيفة وقد صرح ابن خلدون بذلك قائلا :"...فلما دعيت إلى هذه الوظيفة ، سارعت إلى الإجابة لتحصيل غرضي من اللحاق بالمغرب[2].

* الرحلة إلى المغرب الأقصى:

عندما خرج الوزير ابن تافراكين في حملة حربية أمر ابن خلدون بمرافقته ، فنجا ابن خلدون بنفسه إلى تبسة ، ثم سافر إلى قفصة ثم إلى بسكرة حيث أمضى شتاء ذلك العام، ثم عزم ابن خلدون على السفر إلى تلمسان لكنه عاد إلى بجاية وأقام بها ، إلى أن دعاه السلطان أبو عنان إلى فاس ليلحقه بمجلسه ، فوصل ابن خلدون إلى فاس سنة (755 ه).

وفي سنة (756 ه)أدخل ابن خلدون السجن بأمر من السلطان أبي عنان لخبر نمي إليه فبقي هناك حتى سنة (760 ه)،حتى أفرج عنه الوزير الحسن بن عمر حين استولى على السلطة بعد موت السلطان أبي عنان.

ولما وصل السلطان أبو سالم إلى السلطة سنة (760 ه)، جعل ابن خلدون موضع ثقته وعطفه ، وعينه في وظيفة كتابة سره، والترسيل عنه ،والإنشاء لمخاطباته[3].

وفي سنة (763 ه) ، قرر ابن خلدون الخروج من المغرب الأقصى فصرف أولاده وزوجته إلى أخوالهم في قسنطينة ، واختار هو الارتحال إلى الأندلس.

*** الرحلة إلى الأندلس:**

في عام سبع مائة وثلاثة وستون قصد ابن خلدون ميناء سبتة متجها إلى الأندلس ، وعند وصوله إلى غرناطة وصله كتاب من صديقه الوزير ابن الخطيب يرحب به ، ويهنئه بالقدوم.

وفي ثامن ربيع الأول عام (764 ه) دخل ابن خلدون غرناطة ، فاحتفى به سلطانه " أبو عبد الله الأحمر"[4] احتفاء عظيما وعامله معاملة كريمة وضمه إلى مجلسه ، وقربه إليه.

---

[1]- كتابة العلامة :هي وظيفة كتابية بسيطة لا تتجاوز كتابة عبارة (الحمد لله والشكر لله) بالقلم الغليظ بين البسملة وما بعدها في خطاب أو مرسوم سلطاني.

[2]- عبد الرحمن بن خلدون ، التعريف بابن خلدون ، ص 58.

[3]- المصدر نفسه، ص72.

[4]- هو الأمير أبو عبد الله محمد بن أبي الوليد بن نصر ،وابن الأحمر يطلق على أمراء الأسرة النصرية ، للتوسع في هذا الموضوع يراجع كتاب بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد ليحي ابن خلدون

وفي سنة (765 هـ) خرج ابن خلدون من غرناطة إلى ملك اشبيلية وأمر السفارة فنجح في سفارته نجاحا كبيرا، وقام بزيارة البلاد التي عرفت أمجاد أجداده الأول ثم عاد إلى غرناطة[1].

ولما تحسنت أحوال ابن خلدون وأحس بالاستقرار بعث إلى أهله يستقدمهم إذ ظن بأنه سيقيم نهائيا بالأندلس ، لكن ما لبثت السعايات أن أفسدت ما بينه وبين ابن الخطيب ، فقرر ابن خلدون - تجنب التصادم مع صديقه ابن الخطيب – الخروج إلى بجاية ، فأذن له السلطان في ذلك ، وكتب له الوزير ابن الخطيب مرسوما بالتشييع يفيض مدحا وثناء عليه . وتأسف فيه لفراقه تأسفا كبيرا.

*** الرحلة إلى بجاية:**

وقد حدثنا ابن خلدون عن خروجه من الأندلس ،ولحوقه ببجاية ووصف لنا استقباله من قبل أميرها ، واحتفاء الناس به.

وظل ابن خلدون على هذا حتى بدد استقراره هجوم السلطان أبو العباس صاحب قسنطينة، بجيوشه على ابن عمه صاحب بجاية ، فقتله ودخل بجاية .ففر ابن خلدون إلى بسكرة ، وأقام هناك محاولا العودة إلى المطالعة والتدريس، وبينما هو على ذلك وصلته رسالة[2] من الوزير ابن الخطيب يتشوق فيها إليه ، وقد توالت رسائل ابن الخطيب على ابن خلدون يعبر له فيها عن اشتياقه بعبارات تنفطر لها القلوب، وعرض فيها أحواله وأحوال بلاده الأندلس ، وذكر فيها بعض مؤلفاته كما طلب من ابن خلدون الرد على رسائله في القريب العاجل[3] .

وتاريخ ابن خلدون في السنوات الخمسة التالية [4]، غاية في الاضطراب فقد وفد على السلطان أبو حمو موسى[5] بتلمسان ، ثم هم بالرحيل إلى الأندلس لكن ألقي القبض عليه بأمر من السلطان عبد العزيز[6] الذي استولى على تلمسان آنذاك ثم أفرج عنه بعد ذلك .

[1]- عبد الرحمن بن خلدون، التعريف بابن خلدون ، ص86.
[2]- وصلته هذه الرسالة سنة 769 هـ، للتوسع في هذا الموضوع ، يراجع كتاب رحلة ابن خلدون ، محمد بن ثاويت ، الطنجي.
[3]- عبد الرحمن بن خلدون، التعريف بابن خلدون، ص 124.
[4]- أي من سنة 770 هـ إلى 775 هـ. يراجع كتاب رحلة ابن خلدون،محمد بن تاويت الطنجي.
[5]- هو أبو حمو، موسى الثاني بن يوسف بن عبد الرحمن بن يحي بن يغمراسن بن زيان ،أشهر سلاطين الدولة الزيانية ، ينظر كتاب بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد ألواد.
[6]- هو أبو فارس عبد العزيز بن أبي العباس بن أبي سالم المريني، أحد سلاطين المغرب الأقصى ينظر الكتاب نفسه.

وقد حاول ابن خلدون التفرغ للدرس والانقطاع للعلم لكن نداء السلطان قطع عليه هذه المحاولة وفي ذلك قال:"فعمدت إلى رباط الشيخ الولي أبي مدين[1] ونزلت بجواره مؤثرا للتخلي والانقطاع للعلم لو تركت له...وأنا قد أخذت في تدريس العلم، واعتزمت على الانقطاع".[2]

وفي سنة (774 هـ) خرج ابن خلدون من بسكرة إلى فاس ، فوصلها في شهر جمادى في حالة يرثى لها ، بعد أن انتهب في الصحراء وبينما هو مقيم بفاس ، في الظل الدولة وعنايتها عاكفا على قراءة العلم وتدريسه"[3] دون أن تكون له صلة بالحياة السياسية حدث بها انقلاب أودى بسلطانها ، فخرج ابن خلدون مرة أخرى إلى الأندلس سنة (776 هـ) بقصد الفرار ، لكن تأبى المؤامرات والدسائس إلا أن تلاحقه ، أينما ذهب وأينما حل، فأبعد عن الأندلس إلى تلمسان ، ثم خرج منها إلى قبائل أولاد عريف ، فتلقوه بالاحتفاء والتكريم، وأنزلوه بقلعة ابن سلامة [4].

فقرر ابن خلدون التفرغ للإنتاج العلمي، فقضى في قلعة بني سلامة ما يقارب أربعة أعوام، ولم يتمتع ابن خلدون خلال عمره الطويل بحياة الهدوء إلا في هذه الأعوام الأربعة.

* العودة إلى تونس:

قرر ابن خلدون الخروج إلى تونس فغادر قلعة ابن سلامة سنة (784 هـ) متجها إلى تونس فوصلها في شهر شعبان من نفس السنة ، فقام بالتدريس واتسعت حلقة الدرس الخاصة به وانتقل الطلبة إليها من الحلقات الأخرى ، ما أثار عليه دسائس المتآمرين فكثرت السعايات فيه، فعزم على مغادرة تونس من جديد ، برسم الحج إلى بيت الله الحرام.

فانطلق ابن خلدون إلى ميناء تونس ، ليتوجه إلى الإسكندرية.

[1]- هو أبو مدين شعيب بن الحسن الأندلسي المعروف بأبي مدين ، الغوث التلمساني، يراجع كتاب رحلة ابن خلدون.
[2]- عبد الرحمن بن خلدون ، التعريف بابن خلدون ، ص 144.
[3]- المصدر نفسه ، ص 243.
[4]- قلعة ابن سلامة أو بني سلامة ، وتسمى قلعة تلوغزوت، تقع ما بين وهران ومستغانم للتوسع في هذا الموضوع يراجع كتاب ابن خلدون مؤرخا ، لحسن عاصي.

* الرحلة إلى مصر:

لما وصل ابن خلدون إلى الإسكندرية ، أقام بها حوالي الشهر ليهيئ أسباب الحج ، فلم يتم له ذلك ، فقرر السفر إلى القاهرة في أواخر سنة (784 ه)[1]. حيث وجد ابن خلدون، جوا مناسبا، ساعده على الإنتاج العلمي . حاول ابن خلدون جهده لإصلاح الفساد الذي طال جهاز القضاء فعمل على فضح ألاعيب القضاة.

وكان ابن خلدون عندما استقر به الحال في القاهرة بعث يستقدم أهله من تونس ولما كانوا في طريقهم إلى الإسكندرية في البحر، غرقت السفينة، ففقد أسرته بأكملها فاعتزم الحج[2].

وفي سنة (801 ه) عين ابن خلدون للمرة الثانية في منصب قضاء المالكية بعد أن ظل مقصيا عنه أربعة عشر عاما.

وخلال ذلك توفي السلطان برقوق[3] الذي عينه في منصب تدريس الفقه المالكي بالمدرسة القمحية[4] ، ..ثم في منصب قضاء المالكية للمرة الأولى[5].

* الرحلة إلى فلسطين:

في عام (802 ه)، سافر ابن خلدون إلى فلسطين لزيارة بيت المقدس ، ومشاهدة آثاره، وبعدها عاد إلى مصر وعكف على التدريس إلى أن كان الغزو التتري للشام سنة (803 ه) بقيادة تيمورلنك ، وكانت الشام وقتئذ تابعة لسلطان مصر، فخرج سلطانها في عساكره لصد الجيش العسكري التتري عن دمشق ، وقد اصطحب معه مجموعة من الفقهاء والقضاة من بينهم عبد الرحمن بن خلدون[6].

* اللقاء التاريخي بين ابن خلدون وتيمورلنك:

---

[1]- البخاري حمانة، ابن خلدون ، ص 21.
[2]- فؤاد أفرام البستاني، ابن خلدون ، مقدمة المقدمة ، ص342.
[3]- السلطان برقوق مملوك الملك الناصر العباسي ، ملك مصر ، والشام والحجاز .
[4]- أنشأها صلاح الدين الأيوبي، وقف عليها أراضي تغل القمح ، فسميت بالقمحية .
[5]- البخاري حمانة، ابن خلدون ، ص 22.21.
[6]- عبد الرحمن بن خلدون ، التعريف بابن خلدون ، ص 405.

بعد اشتباك قصير بين الجيشين بدأت المفاوضات ، فانتدب ابن خلدون لهذا العمل ، فكان رسول الشام والعرب إلى الغازي التتري تيمورلنك .

وبعد فشل المفاوضات وتمكن المغول من الاستيلاء على دمشق، لم يجد ابن خلدون بدا من البقاء في دمشق، فقد أحس أنه فشل في مهمته ، لذا قرر العودة إلى مصر فوصلها في شعبان من سنة (803 هـ)[1].

ولما عاد ابن خلدون إلى مصر ، ولي وظيفة القضاة ثلاث مرات يولى ثم يعزل وبقي على ذلك حتى سنة (807 هـ)[2].

ز- وفاته:

في سنة 808 هـ الموافق ل 1406م[3] ، ترجل ابن خلدون عن صهوة جواده ،وألقي عصا تسياره أخيرا ، وأسلم روحه إلى بارئها ، وبعد حياة مليئة بالأحداث والاضطرابات، وبعد أن أفنى زهرة عمره في التنقل والترحال لا يتوقف و لا يكل ،وافته المنية وقد بلغ من العمر أربعة وسبعين عاما ، قضى ثلاثة وخمسين عاما منها في الترحال والأسفار وكأنه المقصود بقول القائل :"ولد الإنسان راحلا "، دفن بالقاهرة ، بمقابر الصوفية.

[1]-المصدر نفسه ، ص 429.
[2]- نفسه، ص424.
[3]- البخاري حمانة ، ابن خلدون ، ص 23.

الفصل الثاني

علم التصوف في المقدمة

الفصـــل الـثـانـــي

علم التصوف في المقدمة

المبحث الأول: ماهية التصوف عند ابن خلدون

أ- تعريف التصوف :لغة واصطلاحا

ب- علم التصوف قبل ابن خلدون

ج- التصوف في المقدمة

د- مصادر التصوف عند ابن خلدون

المبحث الثاني: منهج ابن خلدون في بحث التصوف

أ- المنهج الصوفي

أ1:المقدمات

أ2: المجاهدات

ب- موقفه من التصوف

ب1: حقيقة علم المكاشفة كما يراها ابن خلدون

ب2:موقفه من المصطلحات الصوفية

ب3: موقفه من الأحوال والموارد

المبحث الأول: ماهية التصوف عند ابن خلدون

أ- تعريف التصوف:لغة واصطلاحا.

أ1- لغة:

كثرت الأقوال في اشتقاق التصوف عند المسلمين على عدة أقوال إذ ورد في المعاجم: "صفا يصفو وصفاء، نقيض الكدر ، والإخلاص في المودة ومنه قول الشاعر:

الودُ أَنْتِ المُسْتَحَقَةُ صَفْوَهُ

مِنِي وإن لَمْ أَرْجُ مِنْكَ نَوَالاً.

والصفو أيضا ما صَفَا من الشيء ، يقال :أخذ صفوه أي ما صفا منه"[1].

* أنه من صوفة وهو إقبال رجل جاهلي يسمى (الغوث بن مر) نذرته أمه للكعبة لأنه لا يعيش لها ولد ، فلما وفت بنذرها وضعته " ربيطا" للكعبة، فأرهقه حر المكان وأذبله ، فقالت حين شاهدته على هذه الحال:" ما صار إبني إلا صوفة" فتلقفتها أفواه العرب وأطلقتها عليه [2]، وعلى أولاده من بعد.

* أنه من الصفة، إذ أن التصوف هو اتصاف بمحاسن الأخلاق والصفات ،وترك المذموم منها.

* أنه من الصُفة لأن صاحبه تابع لأهل الصُفَة الذين هم الرعيل الأول من رجال التصوف، وفي الحديث ذكر أهل الصُفة قال: هم فقراء المهاجرين ومن لم يكن له منهم منزل يسكنه فكانوا يأوون إلى موضع مظلل في مسجد المدينة يسكنونه[3].

[1]- بطرس البستاني ، محيط المحيط، مكتبة لبنان ،بيروت ،د –ط، 1987م، مادة صفف.
[2]- الإمام ابن الجوزية، تلبيس إبليس، دار الفجر للتراث، القاهرة ، ط2،2010م ،ص 184.
[3]- ابن منظور، لسان العرب، دار صادر ، بيروت ،م1، الطبعة الأولى،1997م،ص51.

* انه من الصف لأنهم في الصف الأول بين يدي الله عز وجل بارتفاع هممهم وإقبالهم على الله بقلوبهم ووقوفهم بسرائرهم بين يديه[1].

*أنه من الصفاء ، فلفظه " صوفي " على وزن " عوفي " ، أي عافاه الله فعوفي ، وقال أبوا الفتح البستني:

تنازع الناس في الصوفي واختلفوا

فيه وظنوه مشتقا من الصوف.

ولست أنحل هذا الاسم غير فتى

صفا فصوفي حتى لقب الصوفي[2].

* أنه من الصوف، لأنهم كانوا يؤثرون لبس الصوف الخشن للتقشف والاخشيشان، ونسبوا إلى ظاهر اللباس، ولم ينسبوا إلى نوع من أنواع العلوم والأحوال التي هم بها مترسمون ، لأن لبس الصوف كان دأب الأنبياء عليهم السلام والصديقين وشعار المساكين المتنسكين[3].

وهذا هو اختيار الكثيرين من الصوفية كأبي طالب المكي والسهر وردي وأبي المفاخر يحي باخرزي، وابن تيمية، وابن خلدون من المتقدمين ، لأنه أرجح الأقوال إلى العقل.

فهذا هو الاختلاف الواقع في أصل لفظة التصوف واشتقاقها ، ولذلك اضطر الصوفي القديم علي الهجويري المتوفى سنه 465 ه إلى أن يقول : (إن اشتقاق هذا الاسم لا يصح من مقتضى اللغة في أي معنى : لأن هذا الاسم أعظم من أن يكون له جنس ليشتق منه.

ويمثل ذلك قال القشيري في رسالته : (ليس يشهد لهذا الاسم من حيث العربية قياس والاشتقاق).[4]

[1]- السهر وردي، عوارف المعارف، دار القلم، بيروت، الطبعة الأولى،1966م، ص331.
[2] - زكي مبارك، التصوف الإسلامي في الأدب و الأخلاق ، شركة أبناء شريف الأنصاري للطباعة و النشر و التوزيع ، صيدا، بيروت ، الطبعة الأولى ،2006م، ص 48.
[3] - الطوسي ، اللمع ، منشورات محمد علي بيضون لنشر كتب السنة و الجماعة،دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، 2001م،ص24.
[4]- القشيري ، الرسالة القشيرية ، المكتبة التوفيقية أمام الباب الأخضر سيدنا الحسين، ص 385.

كما انه مما لا شك فيه انه لا يصح ولا يستقيم اشتقاقه من حيث اللغة إلا من الصوف كما قدمنا.

أ2- اصطلاحا:

كثرت الأقوال أيضا في تعريف التصوف تعريفا اصطلاحيا على آراء متقاربة كل منها يشير إلى جانب رئيسي في التصوف منها:

سئل محمد بن علي القصاب، وهو أستاذ الجنيد ، رحمه الله عن التصوف ما هو ؟ قال أخلاق كريمة ظهرت في زمان كريم مع رجل كريم مع قوم كرام[1].

وسئل الجنيد رحمه الله عن التصوف، فقال : " أن تكون مع الله تعالى بلا علاقة" .

قال معروف الكرخي" التصوف هو الأخذ بالحقائق واليأس مما في أيدي الخلائق.[2]"

سئل سمنون عن التصوف فقال : " أن لا تملك شيئا ولا يملكك شيء " [3] .

قال عمرو بن عثمان المكي:" التصوف أن يكون العبد في كل وقت مشغولا بما هو أولى من الوقت[4].

قال الإمام أبو الحسن الشاذلي: " التصوف تدريب النفس على العبودية ،وردها إلى أحكام الربوبية."

قال أبو محمد الجريري :" التصوف هو الدخول في كل خلق سني والخروج عن كل خلق دني".[5]

[1]- الطوسي ، اللمع، ص26.
[2]- المصدر نفسه ص26.
[3]- أمين يوسف عودة ،تأويل الشعر وفلسفته عند الصوفية ،عالم الكتب الحديث،وجدان للكتاب العالمي مؤسستي النشر و التوزيع،عمان،الأردن الطبعة الأولى 2008م،ص12
[4]- المرجع نفسه ص 13.
[5]- نفسه ص 13.

قال أبو حفص :" حسن أدب الظاهر ، عنوان حسن أدب الباطن "[1]

و سئل علي بن عبد الرحيم القناد رحمه الله عن التصوف ، فقال :" نشر مقام واتصال بدوام."[2]

سئل رويم عن التصوف فقال:" استرسال النفس مع الله تعالى على ما يريد " ثم ينتقل بتعريف التصوف من مقام الرضا إلى مقامي الفقر والتوكل، يقول :" التصوف مبني على ثلاث خصال : التمسك بالفقر والافتقار ، والتحقيق بالبذل والإيثار، وترك التصرف والاختيار".[3]

قال الشيخ زكريا الأنصاري : " التصوف علم تعرف به أحوال تزكية النفوس، وتصفية الأخلاق وتعمير الظاهر والباطن لنيل السعادة الأبدية."

قال الشيخ أحمد زروق:" التصوف علم قصد لإصلاح القلوب وإفرادها لله تعالى عما سواه والفقه لإصلاح العمل وحفظ النظام وظهور الحكمة بالأحكام .والأصول " علم التوحيد"لتحقيق المقدمات بالبراهين وتحلية الإيمان بالإيقان، وقال أيضا :" وقد حد التصوف ورسم وفسر بوجوه تبلغ نحو الألفين ، مرجع كلها لصدق التوجه إلى الله ، وإنما هي وجوه فيه .

قال أبا الحسن محمد بن أحمد الفارسي :" أركان التصوف عشرة: أولها تجريد التوحيد ، ثم فهم السماع ، وحسن العشرة، وإيثار ، وترك الاختيار ، وسرعة التوحيد والكشف عن الخواطر، وكثرة الأسفار ، وترك الاكتساب، وتحريم الادخار.[4]"

ب- علم التصوف قبل ابن خلدون:

مر التصوف في الإسلام بمراحل متعددة وتواردت عليه ظروف مختلفة وإتخذ تبعا لكل مرحلة مفاهيم جديدة وأعلام متعددة يمكن أن نشير إليها كما يلي:

المرحلة الأولى: مرحلة الزهد

[1]. حسين عاصي ، التصوف الإسلامي، ص41

[2]- الطوسي ، اللمع ، ص27.

[3]- أمين يوسف عودة ،تأويل الشعر وفلسفته عند الصوفية، ص 14 .

[4]- الكلابادي ، التعرف لمذهب أهل التصوف ،منشورات محمد علي بيضون لنشر كتب السنة الجماعة،دار الكتب العلمية،بيروت،لبنان،2001 ص103.

* تمتد هذه المرحلة في القرنين الأول والثاني أي من عهد الرسول صلى الله عليه وسلم والخلفاء الراشدين حتى وفاة الحسن البصري (ت 110 ه) [1]

لم تعرف الصوفية سواء كان باسمها أو برسمها وسلوكها بل كانت التسمية الجامعة المسلمين، المؤمنين او التسميات الخاصة مثل الصحابي البردي، أصحاب البيعة، التابعين.

ويمكن أن تطلق على هذه المرحلة من التصوف أهم لفظ من الألفاظ ألا وهو الزهد، على أساس أن هذا اللفظ يعبر عن عدم التهافت على الدنيا وزخارفها والتوجه إلى الله وحده بالتعبد لنيل رضاه فقط.

فلم يكن الزهد في هذا العصر الإسلامي المبكر حركة من الحركات الدينية ولا مذهبا من المذاهب ولا نظاما جماعيا بل كانت نزعة فردية رائدها الدين وحده (القرآن وسنة الرسول صلى الله عليه وسلم).والظاهر أن المسلمين في هذا العصر كانوا منصرفين إلى الجهاد في سبيل الله ونشر دعوته أكثر من انصرافهم إلا حياة الزهد والاعتكاف.وقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال:" لكل نبي رهبانية ،ورهبانية هذه الأمة الجهاد".[2]

لقد تناولت هذه الفترة دور التسامي عن الحياة المادية لأنهم يرون أن الدنيا كلها سريعة الزوال وقليلة النفع ،إذ يجب على الإنسان أن لا تلهيه دنياه عن آخرته التزاما بقوله تعالى " اِعْلَمُوا أَنَّمَا الحَيَاةُ الدّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الأَمْوَال وَالأَوْلاَدِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرّا ثمّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الحَيَاةُ الدّنْيَا إلاّ مَتَاعُ الغُرُورِ[3]."

وهذا لا يعني أن الزهد انصراف تام عن الدنيا إنما كان يمثل الاعتدال والتوسط في الأخذ بأسبابها وملذاتها وهذا ما نلتمسه في قوله تعالى:"وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللهُ الدّارَ الآخِرَةَ وَلاَ تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللهُ إِلَيْكَ.[4]" وقد عبر الجنيد عن التصوف في هذا المرحلة

[1]- محمد عبد المنعم خفاجي، التصوف في الإسلام وأعلامه، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر،الإسكندرية الطبعة الأولى،2002م،ص 17.
[2]- محمد جلال شرف، التصوف الأصلي مدارسة ونظرياته ،دار العلوم العربية ،بيروت، ط1، 1990، ص 49.
[3]- سورة الحديد الآية 20.
[4]- سورة القصص الآية 77.

بقوله :"علمنا هذا مقيد بالكتاب والسنة فمن لم يقرأ القران ويكتب الحديث لا يصلح له أن يتعلم بعلمنا[1]."

ومن أهم زهاد هذه المرحلة الخلفاء الراشدين رضوان الله عليهم جميعا، فضلا عن الصحابة العدول والتابعين وخاصة أبا ذر الغفاري، سلمان الفارسي، صهيب ، أبو الدرداء، ورجال الصفة.

المرحلة الثانية: مرحلة التصوف السني

ظهر التصوف السني في العالم الإسلامي في القرن الثاني الهجري واستمر إلى غاية القرن الثالث هجري وخاصة بعد الفتوحات الإسلامية ، وانتشار الرخاء والغنى والجاه في البنية الإسلامية ، فاختلط الناس بالحياة وأقبلوا على متع الدنيا وزينتها الزائفة . ظهر كثير من العلماء الذين يخافون الله ويطمعون في رحمته وغفرانه . وتركوا الدنيا وإغراءاتها ،ليختاروا الخلوة الربانية ، وساروا على نهج الهدي النبوي وجعلوه مسلكا لهم في التعبد والاعتكاف .و من هنا بدأ التأسيس لعلم التصوف .

ومن أهم كتاب التجربة الصوفية وجامع نصوصها في هذه المرحلة نستحضر القشيري ومؤلفه الرسالة ، وفريد العطار في " تذكرة الألباب". والطوسي في كتابه " اللمع"...ويبقى الحارث المحاسبي الذي يعد العميد الأول للتصوف السني، كونه لم ينحرف في عملية التأويل ولم يغالي فيها كما فعل المتصوفة السنيون، زد على ذلك وقف صامدا في وجه التشبع الباطني[2].

وغير هؤلاء المتصوفة كثير مثل إبراهيم بن الأدهم وشفيق البلخي ومعروف الكرخي الذي هو ابن سليمان الداراني وكلهم عاشوا في القرن الثاني[3]

ومن أهم قواعد التصوف السني التي يرتكن إليها احترام مبادئ القرآن والسنة الإجماع.

[1]- عبد الفتاح فؤاد ، الفلاسفة الإسلاميون والصوفية، دار الدعوة ، ط1، القاهرة سنة 1997، ص22.
[2]- محمد عابد الجابري، بنية العقل العربي ، ص282.
[3]- عمر فروخ ، التصوف في الإسلام ، دار الكتاب العربي، بيروت ،1981، ص64،65،66.

ويعتبر القرن الثالث هو بداية تكون لعلم التصوف بمعناه الدقيق لما حمله من الخصائص النفسية والأخلاقية والابستمولوجية والتي كانت موجودة في القرنين الأول والثاني.

واستمر هذا التصوف حتى أوائل القرن الرابع بحيث يمكن أن نعتبر تصوف هذين القرنين تصوفا إسلاميا ناضجا اكتملت له كل مقوماته، وقد أشار الدكتور أبو العلاء عفيفي إلى ذلك قائلا :" دخل التصوف بعد أن كان زهدا في دور جديد هو دور المواجد والكشف والأذواق، ويقع هذا الدور في القرنين الثالث والرابع اللذين يمثلان العصر الذهبي للتصوف الإسلامي في أرقى وأصفى مراتبه[1]."

ونجد الصوفية في هذه المرحلة قد غلب عليهم الطابع الأخلاقي في علمهم وعملهم فأصبح بين أيديهم علما للأخلاق الدينية ، يدرس النفس الإنسانية ودقائق أحوال سلوكها وتصنيف قواها وبيان آفاتها وأمراضها وطريق الخلاص منها ، والكلام عن الذات الإلهية من حيث صلتها بالإنسان وصلة الإنسان بها ، فجوهر الدين هو الأخلاق لقوله تعالى مخاطبا رسوله الكريم:" وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ[2]".

ويعتبر ذو النون المصري (ت245ه) أبرز وأسبق صوفي غلب عليه الكلام في المعرفة إذ يربطها بالشريعة فيقول :" علامة العارف ثلاث: الحكم، ولا تحمله كثرة نعم الله عز وجل على هتك أستار محارم الله تعالى[3]."

ويقول الشعراني في طبقاته " علم التصوف هو علم انفتح في قلوب الأولياء حين استنارت بالعمل بالكتاب والسنة ، و التصوف هو زبدة عمل العبد بأحكام الشريعة".وقد لخص الشاذلي معنى التصوف السني بقوله : " إذا عارض كشفك الكتاب والسنة ، ولم يضمنها في جانب الكشف ولا الإلهام ، ولا المشاهدة ، مع أنهم أجمعوا على أنه لا ينبغي العمل بالكشف ولا الإلهام إلا بعد عرضه على الكتاب والسنة.[4]"

[1]- أبو الوفا الغنيمي التفتزاني، مدخل إلى التصوف الإسلامي ، ص96.
[2]- سورة القلم الآية 4.
[3]- أبو الوفا الغنيمي التفتزاني، مدخل إلى التصوف الإسلامي ، ص101.
[4]- عبد الوهاب الشعراني، الطبقات الكبرى ، تحقيق سليمان الصالح، دار المعرفة ، بيروت ، لبنان، ص 301.

كما شهدت هذه المرحلة ظهور الطرق الصوفية في صورتها الأولى ، فأنشأ حمدون القصار، المتوفي سنة 271 هـ بنيسابور، فرقة الملامتية أو القصارية، ووجدت فرق أخرى كالطيفورية نسبة إلى أبي يزيد البسطامي المتوفى سنة 261هـ، و الخرازية نسبة إلى أبي سعيد الخراز المتوفي سنة 279 هـ. والنورية نسبة إلى الحسن النوري المتوفي سنة 295 هـ، والحلاجية نسبة إلى الحسين بن منصور الحلاج المتوفي سنة 309 هـ.[1]

المرحلة الثالثة: مرحلة التصوف المنحرف

بعد مرحلة التصوف الإسلامي والتي تميزت بالصفاء والنقاء والإخلاص لله وحده كما سبق وان ذكرنا استجدت ظروف أخرى في القرن الرابع غيرت الكثير من مفاهيم التصوف الأصيل والتي تتمثل في عملية الاختلاط وذلك عندما دخلت الأفكار الغريبة و المعتقدات الفاسدة نتيجة الفتوحات الإسلامية الواسعة فأحدثت تغيرات كبيرة في الثقافة الإسلامية ، بحيث شملت التصوف وغيرت في كثير من صفاته وقواعده الأساسية.[2]

فظهر التصوف في صورة جديدة تختلف عن سابقتها ، إذ تميزت بالانحراف عن طريق الشريعة الإسلامية ، و أصبح الهدف من التصوف خلال هذه المرحلة هو الحصول على المعرفة العليا التي توجد في الملكوت السماوي الأعلى – أي ما وراء الطبيعة-

ومن أجل تحقيق ذلك الهدف اتجه بعض الصوفية المتأثرين بالأفكار الدخيلة ، إلى محاولة الحصول على المعارف الغيبية بطريقة غير شرعية ، إذ استخدموا عدة وسائل عجيبة انطوت تحت اسم التصوف ومن بينها: " الفناء" ، "الإتحاد"، " وحدة الحلول[3]".ونطقوا بعبارات غريبة عرفت بالشطحات ورواد هذه الطائفة هم الحلاج ، وابن عربي ، البسطامي، ابن سبعون ، ابن الفارض، النجم الإسرائيلي ، الهروي، ابن العفيف[4].

[1] - أبو الوفا الغنيمي التفتزاني، مدخل إلى التصوف الإسلامي ، ص 108.
[2] - عبد المحسن سلطان التصوف الإسلامي في مراحل تطوره ، ص31.
[3] - المرجع نفسه ، ص32، 33.
[4] - ابن خلدون ، المقدمة ، ص 384.

ويعتبر الحلاج من أهم رواد التصوف المنحرف كما أسلفنا ، فنجده يفسر قوله تعالى:" هُوَ الأَوَّلُ وَالآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالبَاطِنُ". وقوله :" أنا الأول والآخر والظاهر والباطن لأني أنا الحق وأنا الكل ووجودي غير محتاج الدليل لأني في شيء مقيم".

ويدعي أن الحب الإلهي هو سبب الاتحاد فيقول: " أنا من أهوى ومن أهوى أنا نحن روح حللنا بدنا ، فإذا أبصرتني أبصرته وإذا أبصرته أبصرتنا[1]."وهذا ما أدى إلى اعتقاله لعدة سنين في السجن ومن ثم اجمع الفقهاء المسلمين على إعدامه.

المرحلة الرابعة: مرحلة التصوف المعتدل (السني)

تمتد هذه المرحلة من القرن الخامس الهجري إلى غاية القرن السادس الهجري ،اتخذ التصوف في هذا القرن اتجاها إصلاحيا واضحا على أساس إرجاعه إلى طريق الكتاب والسنة.

ويعتبر القشيري والهروي من أبرز صوفية القرن الثالث الذين نحو بالتصوف هذا المنحى السني، ونهج منهجهما في الإصلاح الإمام الغزالي في النصف الثاني من القرن الخامس، إذ يعتبر الغزالي أكبر مدافع في الإسلام عن التصوف القائم على عقيدة أهل السنة والجماعة ، وعلى الزهد والتقشف وتربية النفس وإصلاحها ، و المتأمل في " الرسالة القشيرية" يلاحظ بوضوح اتجاه القشيري لتصحيح التصوف على أساس عقيدة أهل السنة فيقول :" اعلموا رحمكم الله أن شيوخ هذه الطائفة (الصوفية) بنوا قواعد أمرهم على أصول صحيحة في التوحيد صانوا بها عقائدهم عن البدع ودانوا بما وجدوا عليه السلف وأهل السنة من توحيد ليس فيه تمثيل ولا تعطيل وعرفوا ما هو حق القدم وتحققوا بما هو نعت الموجود عن العدم.[2]"وقال سيد هذه الطريقة الجنيد رحمه الله :" التوحيد إفراد القدم من الحدث واحكموا أصول العقائد بواضح الدلائل ولائح الشواهد[3]".

ومن هنا يتضح لنا أن إصلاح التصوف في رأي القشيري لا يكون إلا بإرجاعه إلى عقيدة أهل السنة والجماعة والإقتداء في ذلك بالصوفية السنين من أهل القرنين الثالث والرابع ، وهذا

[1]- عبد المحسن سلطان، التصوف الإسلامي في مراحل تطوره، ص 42.
[2]- القشيري، الرسالة القشيرية ، ص2.
[3]- المصدر نفسه، ص2.

رأي الهروي أيضا الذي يعتبر من الاتجاه الإسلامي للتصوف ومن المنكرين على أصحاب الشطحات من أمثال البسماطي والحلاج[1].

يعد الإمام الغزالي (ت.505ه)من أهم مصلحي التصوف في القرن الخامس الهجري حيث اتجه بالتصوف والمتصوفة اتجاها صحيحا بعد أن تأكد من سلامة هذه الطرق من خلال الدراسة والتمحيص [2]

ولم يكتفي الغزالي بهذا فقط ،بل خاض بنفسه التجربة الصوفية عمليا، فانقطع لهذا الغرض ، وأثناء معالجته للتصوف وتنقيته من الشوائب ،وجد أن كثيرا من البذور الأصلية له مازالت موجودة لأنها كانت نابعة من مصادر الدين نفسه،فاتخذ من هذه البذور منطلقا لروح جديدة من التصوف متأثرا في نفس الوقت بالاتجاه العلمي الذي كان سائدا في الدولة الإسلامية آنذاك[3].

وضع الغزالي للتصوف منهجا جديدا يقوم على ثلاثة أسس:

أولا:الدين الإسلامي القرآن والسنة.

ثانيا: الاتجاه العلمي: الذي انتشر نتيجة الثقافات الواردة.

ثالثا: تنقية التصوف من الانحرافات التي حدثت في مفهومه وجعلت الكثير م الناس يبتعدون عنه.

ولذالك فقد جعل للتصوف هدفين:

الأول: هو طريقة العبادة وهو ما كان سائدا في العصر الأول للإسلام من عبادة فائقة لله تعالى.

الثاني: هو طريق العلم وهو تحصيل المعرفة والعلم الدنيوي واللدني معا [4].

ووفقا لهذا المنهج استطاع الإمام الغزالي أن يعيد للتصوف الإسلامي ريادته ومكانته التي كان قائما عليها.

المرحلة الخامسة: مرحلة التصوف الفلسفي

[1]- أبو الوفا الغنيمي التفتزاني، مدخل إلى التصوف الإسلامي ، ص148،149، (بتصرف).
[2]- حسين عاصي ، التصوف الإسلامي مفهومه وتطوره، مؤسسة عز الدين للطباعة والنشر، بيروت ، الطبعة الأولى ، 1994،ص70.
[3]- أبو حامد الغزالي ،إحياء علوم الدين، دار المعرفة ـ بيروت ، لينان، الجزء الخامس،ص62، (بتصرف).
[4]-عبد المحسن سلطان،التصوف الإسلامي في مراحل تطوره، ص62.

تمتد هذه المرحلة من القرن السادس إلى القرن السابع الهجريين، وهذا النوع من التصوف قد انبثق أساسا من خلال الفلسفة اليونانية وخاصة فلسفة أفلاطون وثقافات أخرى مختلفة ومختلطة. وهو أساسا يخلو من العواطف القلبية الدينية ،إلا أنه يشترك مع التصوف الإسلامي في جزء من الجانب العملي..ليس من أجل العبادة أو التقرب إلى الله...ولكن كوسيلة لتقوية العقل والحصول على أرقى أنواع المعرفة[1].

وهذا النوع من التصوف نظري، وسائله الأولى، هي التفكير والتأمل العقلي وهذا الاتجاه يعتبر العقل الإنساني هو وسيلة الاتصال بالله وليس القلب...بمعنى الوجدان إذ يهذب العقل بالعلم والنظر ليرتفع إلى الله .فيتصل به ويسعد ،دون أن يتحد به أو يفنى فيه.

والطابع العام لهذا التصوف هو أنه تصوف غامض ذو لغة اصطلاحية خاصة فلا يمكن اعتباره فلسفة حيث أنه قائم على الذوق ،كما لا يمكن اعتباره تصوفا خالصا لأنه معبر عنه بلغة فلسفية.

فجاءت نظرياتهم بين بين لاهي تصوف خالص ولاهي فلسفة خالصة، وأبرز من يمثل التصوف الفلسفي عند الإسلاميين ، السهر وردي، المقتول صاحب حكمة الإشراق (ت 549 ه)،والشيخ الأكبر محي الدين بن عربي (ت 638 ه)، وسلطان العاشقين الشاعر الصوفي المصري عمر بن الفارض (.632 ه) وعبد الحق ابن سبعين المرسى (ت.669 ه)[2].

ج- التصوف في المقدمة:

عني ابن خلدون بدراسة التصوف ظاهرة عمرانية ، يبحث التفاعل بينها والجماعة التي تولد هذه الظاهرة وتنمو، وقد خصص له فصلا في مقدمته سماه في علم التصوف.

لقد عد ابن خلدون التصوف كعلم من العلوم الشرعية الطارئة على الدين وضبط مبررات حدوثه ، فالتصوف عنده هو : " علم من العلوم الشرعية الحادثة في الملة.وأصله أن طريقه هؤلاء القوم، لم تزل عند سلف الأمة وكبارها من الصحابة والتابعين ،ومن بعدهم ،طريقة الحق والهداية وأصلها العكوف على العبادة والانقطاع إلى الله تعالى ، والإعراض عن زخرف الدنيا

[1]-المرجع السابق، ص 104(بتصرف).
[2]- أبو الوفا التفتازاني، مدخل إلى التصوف الإسلامي ، ص 19.

وزينتها، والزهد فيما يقبل عليه الجمهور من لذة ومال وجاه ، والإنفراد عن الخلق في الخلوة للعبادة وكان ذلك عاما في الصحابة والسلف"[1].

إن هذا الوصف الخلدوني للتصوف مع تأصيله لا ينسجم إلى حد ما مع فكرة أنه حادث في الملة، والحدوث يؤكده حديث ابن خلدون عن مبررات ظهور التصوف حيث قال :" فلما فشا الإقبال على الدنيا في القرن الثاني وما بعده . وجنح الناس إلى مخالطة الدنيا ، اختص المقبلون على العبادة باسم الصوفية والمتصوفة.[2]"

ويفصل ابن خلدون في هذه المبررات أكثر في " شفاء السائل" ويرتبها على الشكل الذي أدى إلى حركة زهد فيما بعد تطورت إلى التصوف بفعل عوامل منها: كثرة الفرق الكلامية وما صاحبها من بدع. واستعمل ابن خلدون في تعليله لظهور التصوف عبارات مماثلة لما جاء في المقدمة فيقول:"ثم اختلاف الناس وتباينت المراتب ، وفشا الميل عن الجادة والخروج عن الاستقامة...وشغل الفقهاء بما تعم به البلوى من أحكام المعاملات والعبادات الظاهرة حسبما طالبهم بذلك منصب الفتيا وهداية الجمهور فاختص أرباب القلوب باسم الزهاد و العباد ...ثم طرقت آفة البدع في المعتقدات وتداعى العبادات وإلى هذا معتزلي ورافضي ، وخارجي ....فانفرد خواص السنة المحافظون على أعمال القلوب ، المقتدون بالسلف الصالح في أعمالهم الباطنة والظاهرة ، وتسمو بالصوفية"[3].

بعد أن ضبط ابن خلدون مفهوم التصوف ومبررات ظهوره ، ناقش الاشتقاق اللغوي لكلمة تصوف وصوفي وأدلى بدلوه فيها ، نظرا لما أثارته من اختلاف في ضبط الاشتقاق الأصيل ، والذي أفاض فيه كل من القشيري، والهجويري أيضا .

[1]- ابن خلدون ،المقدمة ،دار الكتب العلمية،بيروت،لبنان،بدون طبعة، ص381.
[2]- المصدر نفسه ، ص381.
[3]-عبد الرحمن بن خلدون ،شفاء السائل في تهذيب المسائل، المطبعة الكاثوليكية، بيروت 1959،ص26،27.

يذهب ابن خلدون في المقدمة إلى الأخذ بمعنى أن التصوف مشتق من الصوف . لأن الصوفية أثاروا في زهدهم لبس الخشن من الصوف، فيقول في ذلك :" وهم في الغالب مختصون بلبسه ، لما كانوا عليه من مخالفة الناس في لبس فاخر الثياب إلى لبس الصوف."[1]

ويعتبر ابن خلدون أن الزهد هو أساس التصوف ومنطلقه ثم التدرج به إلى التصوف حين تظهر على المتصوف حالات وآيات تدل على الدرجات التي قطعها في المجاهدة والمكابدة للإدراك والوصول:

أولا:إدراك العلوم والمعارف ، لا عن طريق اليقين والظن و الشك و الوهم،شأن الإدراك الحسي والعقلي المباشر ، بل إدراك هذه العلوم عن طريق الكشف والتلقي اللدني أي من لدن الله، وهذا ما يسميه المتصوفون و الإشراقيون بالمعرفة اللدنية أي بدون واسطة العقل الذي يعجز عن ذلك[2].
ثانيا: الوصول أي إدراك ذات الله والإتحاد بها و الحلول فيها ، وقبل هذا مراق ومراحل وعقبات ثم أحوال وصفات ومحاسبات وأذواق ، على المتصوف أن يقطعها كلها. وأن يمارسها كلها وتظهر عليه آثارها وبوادرها ، لذا كان على المتصوف التفرغ والتخصص والانقطاع عن الدنيا ومباهجها وهو في حال القدرة عليها[3]

وبشكل عام فإن معنى التصوف عند ابن خلدون هو رعاية حسن الآداب مع الله في الأعمال الباطنة والظاهرة والوقوف عند حدوده، مقدما الاهتمام بأفعال القلوب ، مراقبا خفاياها ، حريصا بذلك على النتيجة.

د- مصادر التصوف عند ابن خلدون

إن التصوف نشأ في كنف الإسلام ولم يكن وليدا لمصادر أجنبية كما يزعم بعض المستشرقين، أما التأثر ببعض التيارات الخارجية فقد ظهر في مرحلة من مراحل تطور التصوف الإسلامي، وذهب ابن خلدون في "المقدمة " إلى القول بأن ظهور الصوفية راجع إلى تفشي اللهو والانغماس في ملذات الدنيا وفي القرن الثاني الهجري وانقطع كثيرا من الناس عن أمور الدين،

[1]- عبد الرحمن بن خلدون ،المقدمة،ص 381.
[2]- خليل شرف الدين،في سبيل موسوعة فلسفية،منشورات دار ومكتبة الهلال،1983،ص185،186.
[3]- المرجع نفسه ،ص 186.

فعكف الأتقياء على العبادة باسم الصوفية والمتصوفة [1] ،وهذا دليل آخر على أن التصوف الإسلامي نشأ على كتاب الله وسنة رسوله .

والتأثر ليس عاملا سلبيا وإنما يتحقق بفضل المطالعة والمثاقفة والتفتح على الآخر، وما من علم أو فن لا يتطور إلا بالاحتكاك والتأثر ،أما الذين انحرفوا عن أصالة التصوف الإسلامي وجرفتهم تيارات غريبة عن عقيدة الإسلام ، فهم قلة وقد انتقدهم العلماء والفقهاء.

وقد ربط ابن خلدون التصوف بالفلسفة ذلك أن الصوفية اهتموا بعلوم المكاشفة ومعرفة الله وكان ذو النون المصري (ت245 ه) أول من أدخل العرفانية في التصوف الإسلامي، وجاء أبو زيد البسطامي (ت270 ه) بنظرية الفناء،أي فناء الإنسان عن نفسه لا شعوريا بذاته مع الله ، ثم تطورت هذه النظرية إلى الحلول والإتحاد مع الله على يد الحسن بن المنصور الحلاج (ت309ه) أي حلول الذات الإلهية في المخلوقات ، واتحاد طبيعة الإنسان في الطبيعة الإلهية حتى تصبح حقيقة واحدة [2]

اختلف الصوفيون المسلمون حول علاقة الإله بالكون، فريف قال بوحدانية الله وانه خالق الكون ،وفريق آخر يرى أن العالم لم يخلق من العدم بل وجد من البداية ، والكون هو صفات الذات الإلهية أي مظهر الله الخارجي، وتسمى هذه النظرية بوحدة الوجود ، وبناء على هذا المذهب تتجلى الألوهية في البشر، وذهب الصوفية من أنصار نظرية وحدة الوجود إلى أن الإنسان يتحد مع الله أما الذين قالوا بتوحيد الله وأنه خالق العالم فأنكروا فكرة الاتحادية ، ولكنهم قالوا بالفيض من الله وانه بالقرب منه ، وتعرف هذه اللحظة عندهم بلحظة الوصول أو الفناء[3].

أما الفقهاء و المتكلمون فقد أنكروا على الصوفية ،استخدامهم بعض الألفاظ والمصطلحات التي جرت على ألسنة الشعراء الغزليين كالغرام والعشق والخمر والكأس والوصل وغيرها، وقد اعتبروا ذلك خروجا عن الشريعة وتمردوا على أحكامها فحب الله عند رجال الدين يتمثل في عبادته وطاعته لا عشقه والهيام به كما يحدث عند الشعراء الغزليين، وهذا الرأي تبناه ابن خلدون.

[1]- أسعد السحمراني ،التصوف منشأه و مصطلحاته،دار النفائس ،بيروت، 1987،ص17.
[2]- تراث الإسلام، جوزيف شاخت وكليفورد بوزورث، ترجمة حسين مؤنس وآخرين معالم المعرفة، ط3، الكويت،1998، ص66.
[3]- عدنان حسين العواد، الشعر الصوفي، دار الرشيد للنشر، بغداد ، 1979.

غير أن الحب الإلهي عند شعراء الصوفية يعتمد على الرموز والإصطلاحات ولا تدرك معانيه إلا بالتأويل .مثل شعر رابعة العدوية (ت 185 ه) التي رفعت عنصر الحي بمعناه الحسي إلى حب إلهي ، فاصطبغ توسلها إلى الله بصبغة الحب والرغبة في الاتصال بالمحبوب الأعلى [1].

ويرى الحلاج (ت309 ه) أن الله هو الحب وأن الإنسان صورة لذاته يعاني من شدة حبه لله وتعلقه به، إلى أن يصل إلى الاتحاد بالإرادة الالهية ، ومن المرجح أن مذهب الحلاج من خلال أفكاره كان حاوليا وقد أنكر عليه جموع علماء الإسلام هذا المسلك ، ولفظة الحلول تقابل عقيدة التجسد المسيحية[2] ،وكان الحلاج قد ورث هذا المذهب عن أستاذه الجنيد.

أما المحاسبي(ت857 م) صاحب كتاب الرعاية فقد كان يرى أن الله هو المعبود الأول وهو مبدأ كل حب ن ويتعين على العقل أن يعرف الواجبات وان يخلص النية والعزم ومحاسبة الضمير تكمن في مراقبة الأعمال اليومية والحب يحيا بالعبادات والقيام بالشعائر والرسوم.

في رأيه هذا هو التوفيق الذي ينبغي أن يبحث عنه وأن يتحقق بين الشريعة والعقل و المحبة[3].

ورغم احترامه لتقاليد الشريعة إلا أنه لجأ إلى استخدام مصطلحات الفلسفة ومفاهيمها الدقيقة في بحثه عن الكمال الروحي .

أما ابن الفارض: (ت 632 ه) كان متقدما جدا في ممارسة الزهد، شديد الحساسية والهيجان، فعندما كان يسمع غناء في الشارع أو على ضفاف النيل لا يتمالك نفسه حتى يأخذ الوجد بمجامع قلبه فيبكي ويتوجع ،ويتمزق ثيابه، ويفقد صوابه ، فكل ما يحرك إحساساته يصبح علامة على وجود الله ، فيشتعل حبه[4].

أما السهر وردي: (ت 585 ه) كان يتصور التجربة الصوفية وكأنها صراع بين النور والظلمة ، وهما اتجاهان متعارضان ، يمزقان قلب الإنسان وهكذا رجعت الصوفية إلى ذلك

[1]- جوزيف شاخت وكليفورد، تراث الإسلام ، ص79.
[2]- مكي الطاشر أحمد، دراسات أندلسية ، دار المعارف، القاهرة 1980، ص31.
[3]- جان شوقليي، (التصوف والمتصوفة)، ترجمة عبد القادر قنيني، إفريقيا الشرق، بيروت، لبنان،1999، ص 35.
[4]- المصدر نفسه، ص59.

الطريق السري الغريب الذي عرفه قدماء الفرس باتجاههم نحو النور، ولم يزل السهر وردي مجاهدا بعقيدته الإسلامية على أنها التعالي المطلق للنور الإلهي.

"فمن استحم في منبع النور لم يتسخ أبدا ، ومن انكشفت عين الحقيقة لخياله، وتجلى له معناها، فذلك الواصل إلى الإشراق ن مصدر النور"

وتكمن أصالة السهر وردي في كونه استطاع أن يدخل في الإسلام السني الحكمة المشرقية الفارسية القديمة بدون أن يحرفها[1] .

أما الغزالي (ت 505 ه) صاحب "إحياء علوم الدين" فقد عمل على جعل التصوف مقبولا لدى السلطة والفقهاء المتشددين في أحكام الشريعة[2].ويرى الغزالي أن معرفة الحقيقة إنما تأتي عن طريق الإيمان والقلب وليس العقل ومن أشهر صوفيي الإسلام محي الدين بن عربي (ت 638 ه) صاحب نظرية وحدة الوجود ، فهو يرى أن العالم وجد قبل أن يخلق تماما كالأفكار التي تولد في ضمير الإنسان قبل تجسيدها ، بمعنى آخر أن الأشياء لمتخلق من العدم .

أما ابن سبعين (ت 669 ه) فهو من كبار متصوفة الأندلس، وقد تعددت آراء الناس فيه فوقره البعض وكفره البعض الآخر ، ومنهجه في التصوف لا يختلف عن منهج صاحب "الفتوحات"

و الأفلاطونية تحتوي على الكثير من الفكر الصوفي إن صح التعبير حيث يعتقدون بنظرية الفيض الإلهي وكذلك يقولون بالعقل الأول النفس الكلية .

ومن أبرز عناصر الفكر اليوناني الغنوصية.و الاشراقية وقد أثر ذلك في التصوف فقد دعا إلى التقشف ودعا إلى اتصال النفس بالملأ الأعلى إذ يعتقدون بوجود عالم روحاني نوراني فوق عالم الطبيعة لا يدرك العقل حسنه وبهاءه ويبلغ الإنسان ذلك العالم إذ تطهرت نفس من علائق هذا العالم المادي فتحذو زكية إذا تبرأت من العجب والتكبر والرياء والحسد.

ويقول ابن خلدون : " ذهب جماعة من المتصوفة المتأخرين الذين صيروا المدارك الوجدانية علمية نظرية . إلى أن البارئ تعالى متحد بمخلوقاته في هويته ووجوده وصفاته، وربما

[1]- المرجع السابق ، ص 54، 56.
[2]- عبد الرحمن بدوية، دور العرب في تكوين الفكر الأوروبي ، وكالة المطبوعات ، دار القلم ، ط3، الكويت ،بيروت، 1979.

زعموا أنه مذهب الفلاسفة قبل أرسطو مثل أفلاطون وسقراط ...، وربما قصد بعض المصنفين ذلك في كشف الموجودات وترتيب حقائقه عن طريق أهل المظاهر فأتى بالأغمض فالأغمض وربما قصد بعض المصنفين بيان مذهبهم في كشف الوجوه وترتيب حقائقه فأتى بالأعمض فالأعمض [1]"

فابن خلدون ينكر على هؤلاء المتصوفة تصوفهم، ويؤيد في ذلك مذهب أخل السنة والجماعة ومن أخذ بمذهبهم كالغزالي رحمة الله .

وفي الأخير فإن التصوف الإسلامي على اختلاف مذاهبه يعتبر جزءا هاما من لبنات حضارتنا الإسلامية.

المبحث الثاني:منهج ابن خلدون في بحث التصوف

أ- المنهج الصوفي عند ابن خلدون .

أ1- المقدمات:

يرصد ابن خلدون المنهج الصوفي كما هو عند أهله فيبدأ بتقديم المعلومات عن المقدمات في مسائل هذا المنهج وفيما يلي نأتي ببيان خلاصة هذه المقدمات .

- المقدمة الأولى:

في الإشارة إلى معنى الروح والعقل والقلب، وما هو الكمال اللائق بها ويذهب ابن خلدون هنا إلى بيان أن الإنسان مركب من الجسد، ومن لطيفة ربانية أو دعها إياه و أركبها مطية بدنه وهي التي يعبر عنها في الشرع تارة بالروح، وتارة بالقلب ، تارة بالعقل ،وتارة بالنفس ، وقال أيضا بأن الشرع ربما كناها بالأمانة.

[1]- ابن خلدون ، المقدمة ، ص 384.

وهذه اللطيفة ميسرة بجبلتها للكمال، ولا ترتقي للكمال إلا بالأعمال الصالحة، حسب أوامر الشريعة قال تعالى: "فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى وَصَدَّقَ بِالحُسْنَى* فسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى* وَ أَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاِسْتَغْنَى * وَكَذَّبَ بِالحُسْنَى * فَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى.[1]"

فإذا أمر الله هذه اللطيفة الربانية َبنور الإيمان ، وزكاها بأعمال الحسنات وطهرها من اقتراف السيئات رجعت إلى الله وقد خلصت من عوائق هذه الدنيا وتبعاتها ، واستولت على الكمال الذي خلقت له...[2]

- المقدمة الثانية:

في كيفية اكتساب هذه اللطيفة الربانية العلوم والمعارف التي بها كما لها وفيه فرق بين العلم الكسبي والإلهامي ، وبين الوحي ليتبين من ذلك معنى العلم الإلهامي وهو علم الكشف والمشاهدة الذي تدعيه المتصوفة، وطريقه عندهم على مسلكين:

* جهة الحياة الدنيا والعالم الأسفل حيث العلوم والمعارف وذلك ببسط الحواس الظاهرة على المدركات ثم بانتزاع صورها في الخيال، ثم تجريد المعاني المعقولة منها ، ثم تصرف على الفكر فيها بالتركيب والتحليل ونظم الأقسية ويسمى هذا العلم كسبا.

* جهة العالم العلوي: وعالم الأمر والروحانيات فتكتسب منها بتصفيتها عن مدرات الرذائل وتخليصها من ظلم البشرية فتتعرض بذلك لنفحات الرحمة والكمال والسعادة. فتلوح أنوار العلم والمعرفة ، وقد استدلوا على هذه المقدمة بأدلة من القرآن الكريم والسنة .

– المقدمة الثالثة:

في معنى السعادة الأخروية وتفاوتها ، وحرص أهل الهمم على الفوز بالنوع الأعلى منها وهو النظر إلى وجه الله تعالى ، وطلب سببه المؤدي إليه[3].

– المقدمة الرابعة:

[1]- سورة الليل ، الآية (5،10).
[2]-الجرجاني، التعريفات،دار الكتب العلمية،بيروت ،ط1، 1403،ص 59.
[3]- المرجع نفسه ص65.

في أن لذة المعرفة الكشفية قد تحصل في الدنيا[1] لكنه ينهى عن الدخول في هذا المجال لخطورة هذا الأمر ، المسلم مطالب بالاستقامة ونفسه ميالة إلى الكرامة يقول ابن خلدون:" ولما رجع من رجع منهم من هذا السفر فائزا بالغنيمة حاصلا على الغاية حذروا من غرر الطريق وخطره حتى في نفس المقصد الذي أقله النجاة - أعاذنا الله – فإن سلم من هذا كله فقد فاز فوزا عظيما."

قال أبو علي الجوزجاني:" كن صاحب استقامة لا صاحب كرامة فان نفسك متحركة في طلب الكرامة ، وربك يطالبك بالاستقامة[2].

ويستفاد مما لاحظه ابن خلدون على هذه المرحلة من مراحل الطريق الذي تختاره المتصوفة أنه منهج خاص لا يصلح لجميع الناس كما أنه غير مأمون العاقبة حتى إن أقطابهم يحذرون منه ويرون فيه صعوبات بالغة لا يأمن السالك فيها على ما نهى الله عنه وفي ذلك اليسر وفيه أيضا النجاة ولا داعي للتشديد في الدين ولو بحسن النية فإن المنبت لا أرضا قطع ولا ظهرا أبقى.

أ2 – المجاهدات:

رصد ابن خلدون هذه المرحلة من الطريق الصوفي عند المتصوفة فتحدث عن المجاهدات وأقسامها وشروطها وفيما يلي نذكر أهم ما جاء فيها اختصار:

يقصد بالمجاهدات ما يأخذ به المريد نفسه من أساليب المجاهدة كما رسمها له شيخه إذ لا بد في الطريق – لدى المتصوفة- من شيخ يتبعه المريد ليتولى تربيته وإعداده للطريق وهو الذي يحدد له ورده وأسلوب مجاهدته ويكون المريد لشيخه مطيعا لا يناقشه ولا يسأله ولا يعترض عليه بحال من الأحوال حتى لا يطرده الشيخ أو يتخلى عنه، وهذه المجاهدات على مراحل:

[1]- المرجع السابق ص 69.
[2]- نفسه ص 73.

- المجاهدة الأولى:

مجاهدة التقوى وهي الوقوف عند حدود الله والبعد عن المشتبهات لأن الباعث على هذه المجاهدة طلب النجاة[1] وهي فرض عين على كل مكلف ،إذ الواجب على كل مسلم أن يتقي عذاب الله بالوقوف عند حدوده.

- المجاهدة الثانية:

مجاهدة الاستقامة وهي تقويم النفس وحملها على التوسط في جميع أخلاقها والباعث على هذه المجاهدة طلب الفوز بالدرجات العلى درجات الذين انعم الله عليهم[2] قال الله تعالى: " اِهْدِنَا الصِّرَاطَ المُسْتَقِيمَ صِرَاطَ الّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ .[3]"

وقال صلى الله عليه وسلم:" استقيموا ولن تحصوا واعلموا إن خير أعمالكم الصلاة.[4]"

وحصول هذه الاستقامة بعلاج خلق النفس ومداراتها بمضادة الشهوة ومخالفة الهوى مقابلة كل خلق يحس من نفسه [5]وهواه ، بالميل إليه والاعتداد به، بارتكاب ضده الآخر ، كمعالجة البخل بالسخاء والكبرياء بالتواضع...وهذه المجاهدة مشروعة في حق الأمة ، فرض عين في حق الأنبياء صلوات الله عليهم أجمعين.

- المجاهدة الثالثة:

مجاهدة الكشف والإطلاع : وعرفها بقوله: " وهي إخماد القوى البشرية كلها حتى الأفكار موجها بكلية تعقله إلى مطالعة الحضرة الربانية" وهو محو الصفات البشرية وتعطيل القوى البدنية بالرياضة والمجاهدة حتى يحصل للروح ما سيقع بعد الموت [6]، هذه المجاهدة يستنكرها ابن خلدون ويرى أنها خارجة عن متطلبات المسلم ومما لم يأمر به الدين الحنيف.

[1]- خليل شرف الدين،في سبيل موسوعة فلسفية ،ص 208.
[2]- المرجع نفسه ،ص 209.
[3]- سورة الفاتحة،الآية (5،6).
[4]- موطأ مالك،34/1.
[5]- ابن خلدون ،شفاء السائل ص77.
[6]-المصدر نفسه،ص 92،82.

ثم يشرح هذه المجاهدات الثلاث ويبين أيها غلبت على اسم التصوف فيقول :" فهذه ثلاث مجاهدات يطلق اسم التصوف على مجموعها ، وعلى كل واحدة منها ، لكن غلب استعمال الأخرتين دون الأولى ، وغلب في الأولى اسم الورع وصار علم المجاهدة الأولى هو فقه الورع وفقه القلوب ، والعلم (اللدني) الذي يسمى علم التصوف".

ب- موقفه من التصوف:

ب1- حقيقة علم المكاشفة كما يراها ابن خلدون وموقفه منها:

إذا كان ابن خلدون قد شرح لنا مسالك التصوف والصوفية وطرق المجاهدة فيها فانه هنا يبين لنا حقيقة علم المكاشفة قبل أن ينقد هذا العلم، والكلام في هذا الأصل تابع للمجاهدة الثالثة التي سبق أن بين لنا وجهة نظره منها حيث قال: إنه من يدخل فيه لا يعود بالخير إلا من رحمه الله والذين رجعوا منه حذروا السابكين من مغبته وخطورته .

ويرجع هنا فيؤكد أول أن علم المكاشفة تقوم أصوله على الإيمان الصحيح الذي لا يصاحبه شك في الله تعالى وأفعاله وقضائه وقدره والإيمان باليوم الآخر وتوابعه من الجنة والنار والصراط والحوض وغيرها من مسائل العقيدة والإيمان ومداومة العمل الصالح على منهج الرسول صلى الله عليه وسلم،حتى يرتقي المسلم بإيمانه إلى درجات المحسين استنادا لقوله صلى الله عليه وسلم " من مات يشهد أن لا إله إلا الله دخل الجنة".

بمعنى أن العامل المسلم إذا اخذ نفسه بالمجاهدة في باب الاستقامة وباب التقوى بعد تصديقه بأركان الإيمان ومسائله الملحقة به، فإن الله تعالى يكرمه في الدنيا بأمور كثيرة منها حصول التزكية والطهارة للقلب وحصول الصفاء النفسي والتجليات والنفحات والأنوار الربانية التي تحرق شبهات الشيطان وجنوده وعندما يحصل لبعضهم الكشف[1].

[1]- ابن خلدون ، المقدمة ، ص381 (بتصوف).

ثم يؤكد لنا ثانيا أن السائرين في الطريق إن كانوا من العوام والأميين ولم يتسلحوا بالعلم الشرعي الصحيح فإن علم المكاشفة فيهم يقودهم إلى الممالك وطرقها، ولهذا نجد في أكثرهم كثيرا من الأقاويل الباطلة والكشوفات المزيفة والمختلفة والملبسة ولا يزالون يبتعدون عن الكتاب والسنة.

وقد خاض ابن خلدون في الكلام عن الأصلين فيقول عن حقيقة علم المكاشفة

أولا: " إعلم أن مجاهدة المكاشفة مشتملة على مجاهدة الإستقامة ومجاهدة التقوى...فالقلب عند تطهيره وتزكيته من صفاته المذمومة يرتفع عنه الحجاب، ويتجلى فيه النور الإلهي، فتنكشف له بذلك أسرار الوجود علويه وسفليه ، وملكوت السماوات والأرض، وتتضح له معاني العلوم والصنائع وتنخل عنه جميع الشكوك و الشبه، ويطلع على ضمائر القلوب، وأسرار الوجود، وتنكشف له معاني المشتبهات الواردة في الشرع ، حتى تصل له المعرفة بحقائق الوجود كله على ما هي عليه"[1]

ثم يفصل ابن خلدون في مراتب التجليات فيقول: " وأول مراتب التجليات عندهم تجلي الذات على نفسه ،وهو يتضمن الكمال بإفاضة الإيجاد والظهور ، لقوله في الحديث الذي يتناقلونه :" كنت كنزا مخفيا، فأحببت أن أعرف ، فخلقت الخلق ليعرفوني ". وهذا الكمال في الإيجاد المتنزل في الوجود وتفصيل الحقائق، وهو عندهم عالم المعاني والحضرة الكمالية والحقيقة المحمدية ، وفيها حقائق الصفات واللوح والقلم وحقائق الأنبياء والرسل أجمعين والكمل من أهل الملة المحمدية ، وهذا كله تفصيل الحقيقة المحمدية ، ويصدر عن هذه الحقائق أخرى في الحضرة الهبائية، وهي مرتبة المثال ، ثم عنها العرش، ثم الكرسي ، ثم الأفلاك ثم عالم العناصر ، ثم عالم التركيب ، هذا في عالم الريق، فإذا تجلت ، فهي في عالم الفتق[2]."

وإذا سألنا ابن خلدون ثانيا: عن أحوال السائرين في هذا المسلك وكيفية حصول المكاشفة لهم والتي اعتبرها بعضهم فقه مسائل السالكين للوصول إلى اليقين فيجيبنا قائلا :" فأما علم المعاملة فهو على صنفين:لأن مطلوب السالك إن كان النجاة فقط ولم يترق إلى الأعلى منها ، فهذا يكفيه لا ورع ومجاهدة القلب على مقتضى الوقوف عند حدود الله في أعماله الباطنة والظاهرة....و أما

[1]- ابن خلدون ، شفاء السائل ، ص47 (بتصرف).
[2]- ابن خلدون ، المقدمة ، ص 385.

علم المكاشفة الذي هو ثمرة المجاهدات ونتيجتها فلم يكن سبيل إلى الخوض فيه، وقد حذر القوم من إيداعهم الكتب والكلام في شيء منه، ولا يكشفون لغيرهم شيئا من معانيه[1]" ثم يقول :" أما الألفاظ الموهمة التي يعبرون عنها بالشهوات،ويؤاخذهم بها أهل الشرع، فاعلم أن الإنصاف في شأن القوم أنهم أهل غيبة عن الحسن، والواردات تملكهم حتى ينطقوا عنها بما لا يقصونه وصاحب الغيبة غير مخاطب والمجبور معذور[2]."

يلاحظ من هذا النص مدى تمكن ابن خلدون من معرفة حقيقة مذهب التصوف وربط أصوله بالتقوى والاستقامة ونقاء السريرة ، على ضوء الشريعة الإسلامية ، وعدم التكلف والتعمق في البحث في ما يسمونه بعلم المكاشفة ورفع الحجاب ومشاهدة أسرار الربوبية لله لأن الإنسان المسلم لم يطالب بذلك.

إذا ابن خلدون يرى أنه لا مانع من أن ينصرف العبد المسلم إلى طهارة نفسه وتزكية فؤاده بتقوى الله تعالى ومراقبته في السر والعلن وطلب مرضاة الله تعالى بأداء ما افترض الله عليه من فرائض وواجبات والقيام بمتابعة سنة المصطفى صلى الله عليه وسلم والصبر على الأقدار والمصائب وعلى ترك الفواحش والمداومة على طاعة الله بالانقطاع إليه تعالى والاستغناء عن الخلق، فإنه ينكر على أولئك الذين يطلبون بعد هذا رفع الحجب عنهم والاطلاع على الأمور الغيبية والأسرار الإلهية التي يسمونها بعلم الباطن، والعلم اللدني ، وعلم الحقيقة المخالف لعلم الشريعة فيقول في هذا الموضوع:

* واعلم أن الخوض في هذا الفن محظور من وجوه:

أولها: أن العبارة عن تلك المدارك المتكشفة من عالم الملكوت متعذرة ، لا بل مفقودة ، لأن ألفاظ التخاطب في كل لغة من اللغات إنما وضعت لمعاني متعارفة، أما ما ينفرد بإدراكه الواحد في الاعصار والأجيال فلم توضع له ن ولا يصح أيضا التجوز بهذه الألفاظ إلى تلك المعاني حتى يقال عنها بهذه الألفاظ على طريق المجاز ، ولا نسبة بوجه بين عالم الملكوت وعالم الملك، ولا بين عالم الغيب وعالم الشهادة ، فإن العبارة عن أحوال عالم الملكوت متعذرة أو مفقودة ، فكيف يتكلم بما لا يفهم ، فضلا على أن يودع الكتب ، وإن صاروا إلى ضرب الأمثال والقنوع بالإجمال فسبيل مبهم[3].

[1]- ابن خلدون ، شفاء السائل ، ص 48.
[2]- ابن خلدون ، المقدمة ، ص 389.
[3]- المصدرنفسه، ص 382.

وثانيها: أن الأنبياء صلوات الله عليهم هم أهل المكاشفة والمشاهدة بالأصل ، إذ هي لهم جبلة وطبيعة ، واللمحة التي تحصل لغيرهم من ولي أو صديق بتكلف أو اكتساب، واطلاعهم على ذلك بإمداد الله إياهم بنوره، ومع هذا فلم ينقل ذلك أو اكتساب ، وقد سئل صلى الله عليه وسلم عن الروح فقال: " قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلا.[1]"

ثالثها:أن العلوم والمعارف بحسب نظر الشرع تنقسم إلى محظور وغير محظور، والقاعدة المستقرأة من الشريعة أن كل ما لا يهم المكلف في معاشه ولا في دينه فهو مأمور بتركه، قال صلى الله عليه وسلم:" من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه." قيل هذا الحديث ثلث الدين ، فما يهم المكلف في دينه أو معاشه فغير محظور ، وربما تنتهي الأهمية فيه إلى الوجوب ومن هذا العلم بفروض الأعيان ، إذ هو أهم بحسب الدين، ومالا يهم المكلف في دينه ولا معاشه تجده محظورا

وتأمل قوله تعالى: " وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ " تجد في قوله تعالى: " قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أوتِيتُمْ مِنَ العِلْمِ إلاَّ قَلِيلاَ.[2]"

رائحة الإنكار الدال على الحظر ، وكذلك قوله تعالى: " يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالحَجِّ[3]."

معناه أن الذي يهمكم من أمر الأهلة كونها معالم للحج ، وهذا من أمور الدين، أو معالم للناس في مزارعهم ومتاجرهم وهذا من أمور المعاش ، وما سوى ذلك فلا حاجة لكم به ثم عقبه بذكر ما هو أهم وهو النهي عما كان بعض الحجاج يفعلونه في إحرامهم من هجر البيوت في الدخول ، وإتيانهم من ظهورها ، ففي تعقيبه لهذا الحكم بعد الإضراب عن مقصود السؤال تنبيه وإلمام على حظر الشارع لذلك ، وطلب تركه من المكلفين[4].

ب2- موقفه من مصطلحات الصوفية:

[1]- سورة الإسراء الآية 85.
[2]- سورة الإسراء الآية 85
[3]- سورة البقرة الآية 189.
[4]- ابن خلدون ، شفاء السائل، ص56(بتصرف).

أما موقفه من مصطلحات الصوفية وأسرارهم الغامضة فقد شدد في الإنكار عليهم، لمخالفتهم منهج أهل السنة والجماعة في تفسيرهم للنصوص النقلية ، وبين نحلهم ومذاهبهم المختلقة فيها ن كأصحاب التجليات والمظاهر والأسماء وأصحاب الوحدة ، وأصحاب الطبائع والحروف والأسماء المعتقدين بروحانية الكواكب والأفلاك ومقدماتها على التأثير ، ويقول عنهم بأنه لا يحسن الظن بمن خالف الشرع والسبب أنهم لما تركوا آداب الإتباع للقرآن والسنة ، فكيف يؤخذ عنهم أدبهم مع الله تعالى وكيف يؤمنون على أسرار الله وأخباره من طرفهم ، يقول في هذا الشأن رحمه الله :"ثم إن قوما من المتصوفة المتأخرين عنوا بعلوم المكاشفة ، وعكفوا على الكلام فيها ، وصيروها من قبيل العلوم والاصطلاحات، وسلكوا فيها تعليما خاصا، ورتبوا الموجودات على ما انكشف لهم ترتيبا خاصا ، يدعون فيه الوجدان والمشاهدة وربما زعم بعضهم في ذلك غير ما يزعمه الآخرين ، فتعددت المذاهب ، واختلفت النحل والأهوال ، وتباينت الطرق والمسالك ، تميزت الطوائف، وصار اسم التصوف مختصا بعلوم المكاشفة ، والبحث عن أسرار الملكوت والإبانة عن حقائق الوجود ، والوقوف على حكمته وأسراره..[1]"

فابن خلدون يقرر هنا أن علم المكاشفة محظور على المسلمين البحث عنه أو الإغراق فيه وذلك لأن التعبير عن غايته أمر غير مستطاع وليس فيه اللغة من الألفاظ ما يمكن استخدامه في التعبير عن أحوال السائرين فيه كما أنه لا توجد للمسلمين حاجة في الجري وراء هذا السراب أو البحث فيه ما داموا لم يكلفوا بذلك.

وقد ناقش ابن خلدون حقيقة أن مسألة لزوم الشيخ واعتبار ذلك ضرورة لا بد منها للمريد قد جرت على المسلمين شرورا كثيرة فليس للمريد رأي مع شيخه مما أفقد المريدين شخصيتهم ، كما أنه ربما كان الشيخ أميا أو جاهلا لا يحسن كثيرا من أمور الدين ولا يفقه كثيرا من مسائل الشرع ومشايخ الطرق الصوفية في كثير من أنحاء العالم الإسلامي يأتون بالمخازي ويستغلون الناس ويسخرونهم ويتكسبون بمشيختهم ولا يستطيع مريد مع شيخه أن ينبس ببنت شفة وإلا طرده الشيخ، وطرد الشيخ معناه اللعنة[2].

[1]- ابن خلدون، المقدمة ، ص383 (بتصرف).
[2]- ابن خلدون ، شفاء السائل، ص65.

نعم إن لزوم الشيخ لدراسة العلوم الشرعية أمر مرغوب فيه دينا فكل العلماء المعروفين قد درسوا على شيوخهم وتفقهوا عليهم، فالمريد في الصوفية له شيخ واحد لا يتجاوزه حتى يصير المريد شيخا على عكس طلاب العلم الشرعين إذ ينتقلون من شيخ إلى شيخ ،وهذا هو مقصود الشرع[1].

ب3- موقفه من الأحوال والموارد:

يجيب ابن خلدون عن الأحوال والموارد التي تظهر على الصوفية وطلابها فيقول:"إن كتب المشار إليها - أي كتب الصوفية- محشوة بالحكايات عن أرباب الأحوال الذين ملكتهم الأحوال والمملوكين للأحوال لا يقتدى بهم ما داموا كذلك ، ومن اقتدى بهم خرج عن الطريقة المثلى، وخيف عليه الانقطاع ، وهو الغالب فيمن اتبعهم إذ هنالك صار الناس حين اتبعوهم فرقا.

فمنهم من نحل جسمه حتى تلف أو كاد ، ومنهم من تلف عقله أو كاد ، ومنهم من شاد الدين بما لم يأذن الله فغلبه ، ومنهم من يئس من روح الله في السلوك أو كادوا منهم، من كان على طريقة خير من علم أو عمل ، فانقطع عنه لعارض رياء أو عجب أو حب الدنيا أو جاه، فترك العمل والعلم ظانا أنه بركة لله وقد نال الشيطان منه ما قصد وأما المالكون للأحوال فمنهم المقتدى بهم، لأنهم بما ملكوا أنفسهم وقهروا أحوالهم كانوا معتدلي الحركات والأحوال بالإقتداء[2] ".فالأحوال والمواجيد منها ما هو صحيح بإطلاق ، ومنها ما يكون صحيحا م وجه دون وجه، ومنها ما هو محتمل وجميعها محتاج إلى نظر الشيخ فإذن من رام أن يتصرف دون شيخ قد رباه شيخ آخر بسند سلوكي إلى المعلم الأول والمرشد الحق محمد صلى الله عليه وسلم فقد رام أمرا صعبا ورمى مرمى بعيدا فأكثر الباطنية والحلولية والزنادقة والإباحية والتناسخية وسائر ما ذكر من الفرق في هذا النمط غنما أصل هلاكهم السلوك في هذا الطريق من غير شيخ محقق، عارف ، ومن هنا ضل كثير ممن اتبع آثار الكتب في هذه الطريقة[3] فصاروا كما قال تعالى " شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ[4]."

[1]- المصدر السابق، ص66 (بتصرف).
[2]- ابن خلدون ا،لمقدمة، 382.-386.
[3]- ابن خلدون، شفاء السائل ص 166.
[4]- سورة الروم الآية 32.

فنزلوا نصوص الكتاب والسنة على ما لا يعرفون من أحوال القوم، أو صيروا أحوال القوم تجري على شريعة أخرى ، غير التي بثها رسول الله صلى الله عليه وسلم في الأمة ، ورأوا أن الصوفية مخاطبون بغير ما خوطب به الجميع ن ويكفيك هذا من سوء أحوال من اتبع آثار الكتب...

وقد بينا فساد رأي من زعم تفاوت الناس في خطاب الشريعة وأن لها ظاهرا أو باطنا...إذا فقد هذا السلوك ما الذي يفقده المريد؟ بل هذا السلوك أقرب إلى الخطر وأمس إلى الغرر ، إلا من عصم الله ووفق ، وهل بعد حصول الاستقامة التي هي خلق الأنبياء والصديقين ، وخلق القرآن سلوك يطلب[1]؟

وهكذا نرى ابن خلدون يقرر لنا أن التصوف هو مجاهدة التقوى والورع فقد أوضحته الشريعة أيما إيضاح ، وإن كان مجاهدة المكاشفة فهو أمر لا بد فيه من شيخ يتصل بالسلسلة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم " والمريد يحتاج إلى محاسبة نفسه في سائر أعماله، وينظر في حقائقها لأن حصول النتائج عن الأعمال ضروري وقصورها من الخلل فيها كذلك ، والمريد يجد نفسه ذلك بذوقه ويحاسب نفسه على أسبابه، ولا يشاركهم في ذلك إلا القليل من الناس ، لأن الغفلة عن هذا كأنها شاملة[2]."

ثم أشار ابن خلدون إلى نماذج من العواقب السيئة التي آل إليها كثير من الأتباع من نحول الجسم وغياب العقل وضعف الصحة والعجز عن العمل وكيف نتصور مجتمعا إسلاميا ينتسب فيه إلى الإسلام تشيع فيه هذه الأمور فيترك المسلمون أعمالهم ويتخلون عن دنياهم ليسيطر عليها أعداء الإسلام؟ ويذلوا بها المجتمعات الإسلامية فيكون أعداء الإسلام ، هم العاملون والمبتكرون وأصحاب الثروات والمصانع والسلاح بينما المسلمون يعيشون في الخلوات ويلزمون التكايا وتكون أيديهم هي الدنيا والسفلى لأنهم يأخذون ولا يعطون ويعانون ولا يعينون.

[1]- ابن خلدون ، شفاء السائل ، ص74.
[2]- ابن خلدون ، المقدمة ، ص 381.

وإذا كان حال المسلمين هكذا من الفقر والقلة فمن أين تخرج الزكاة وهي الركن الثالث من أركان الإسلام ؟ وكيف تتحقق عزتهم التي أخبر الله عنها في القرآن بقوله:" وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ.[1]"

إن الإسلام يطلب من المسلم أن يملك دنياه ويسيطر عليها ويسخرها لمصالحه، ويحذره أن تمتلكه دنياه فتستعبده وتستذله ، وليس الزهد في الإسلام ألا تملك شيئا وإنما الزهد ألا تحزن على ما ضاع منك وألا تفرح بما يأتيك . قال تعالى:"وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللهُ الدَّارَ الآخِرَةَ وَلاَ تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللهُ إِلَيْكَ[2]."

ونصوص الشريعة في هذا المجال كثيرة لكن المسلمين بين طرفي نقيض إما ميل إلى الدنيا وزهرتها بالكلية ، وإما انقطاع عن الدنيا بالجملة وتبتل متواصل للآخرة.

وحاضر العالم الإسلامي اليوم يحزن كل غيور على الإسلام فالمسلمون يقتربون الآن من ثلث العالم من حيث الكم ولكن كيف هم من حيث الكيف؟

[1]- سورة المنافقون ، الآية 8.
[2]- سورة القصص، الآية 77.

خـــاتمـــة

في ضوء استقرائنا لفصلي البحث توصلنا إلى النتائج التالية:

أولا- كانت حياة ابن خلدون حياة علم وتحصيل فالحكمة ضالة المؤمن فهي لا تحد بمكان ولا زمان والعلم كان ضالة ابن خلدون بحث عنه والتقطه في كل مكان.

ثانيا- لم يقتصر تعليم ابن خلدون على علم دون آخر ولا على بعض دون البعض الآخر، لقد تعلم وتعمق في كل علوم عصره العقلية منها والنقلية وهذا ما أهله لأن يصبح فقيها ومؤرخا وكاتبا وشاعرا وحاجبا ودبلوماسيا وقاضيا متقلدا وظائف ومناصب عليا في الدولة .

ثالثا- يعد ابن خلدون من أبرز العلماء والمنظرين لعلم التصوف وتجلى ذلك في كتابه "مقدمة".

رابعا- لقد نظر ابن خلدون لعلم التصوف حيث كان موقفه منه ومن المتصوفة حاسما وواضحا فلقد درس مؤلفاتهم واستسقى حياتهم ووقف على طرقهم ومناهجهم

خامسا- لقد رفض ابن خلدون أساليب المتصوفة التي يخرجون بها عن ظاهر شرع الله القائمة على كتاب الله وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم وإجماع الأمة وأوضح أن عاقبة الإغراق في الكشف والسير في المعيبات فيما وراء العقل أمور لا طائل منها .

سادسا- التصوف عند ابن خلدون هو الذي يقوم على كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ومن ثم يكون سلوكا تربويا يصل به الملتزمين إلى الصراط المستقيم .

قائمة المصادر والمراجع

القرآن الكريم(رواية ورش)

1- ابن تيمية ، مجموعة الفتاوى ، تخريج عامر الجزار، أنوار الألباس، دار الوفاء، المنصورة، الطبعة الثانية 1419 هـ- 1998م

2- ابن الجوزي ، تلبيس إبليس ، تحقيق د .حامد أحمد الطاهر ،دار الفجر للتراث، القاهرة ، الطبعة الثانية 2010.

3- ابن حجر العسقلاني، فتح الباري في شرح صحيح البخاري، القاهرة، الطبعة الرابعة، 1408 هـ.

4- ابن منظور، لسان العرب ، دار صادر، بيروت، الطبعة الأولى 1997 م.

5- أبو حامد الغزالي ، إحياء علوم الدين، دار المعرفة، بيروت ، لبنان، الجزء الخامس.

6- أبو القاسم محمد كرو،العرب وابن خلدون،دار مكتبة الحياة، بيروت، لبنان، الطبعة الثانية ، 1971م.

7- أبو الوفا الغنيمي التفتازاني، مدخل إلى التصوف الإسلامي ،دار الثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة، الطبعة الثالثة.

8- أحمد ابن حنبل ، مسند الإمام أحمد، دار المعارف، القاهرة، الطبعة الخامسة 1405 هـ.

9- إدريس خضير ، التفكير الاجتماعي الخلدوني وأثره في علم الاجتماع الخلدوني ،موقم للنشر، الجزائر .2007م.

10- اسعد السحمراني ، التصوف منشأه ومصطلحاته، دار النفائس ، بيروت ، 1987 م.

11- الألباني ، سلسلة الأحاديث الصحيحة ، مكتبة المعارف ، القاهرة ، الطبعة الخامسة، 1405 هـ.

12- أمين يوسف عودة ، تأويل الشعر وفلسفته عند الصوفية ،عالم الكتب الحديث وجدار للكتاب العالمي ، عمان الأردن، الطبعة الاولى 2008 م.

13- البخاري ، حمانة ،ابن خلدون، منشورات وزارة الثقافة والسياحة ،الجزائر، 1985 م.

14- البخاري ، صحيح البخاري ، دار الحديث ، القاهرة ، 1425 هـ- 2004 م.

15- بطرس البستاني ، محيط المحيط ، مكتبة لبنان، بيروت، د. ط 1987م.

16- الترمذي ، الجامع الصحيح، سنن الترمذي، دار الكتب العلمية، بيروت .

17- جان شوقلي – التصوف والمتصوفة، ترجمة عبد القادر قنيني، إفريقيا الشرق، بيروت، لينان 1999.

18- الجرجاني ، التعريفات ، دار الكتب العلمية، بيروت، 1403 هـ.

19- جوزيف شاخت وكليفورد بوزورثن تراث الإسلام، عالم المعرفة، الكويت، الطبعة الثالثة 1998م.

20- حسن الشرقاوي، أصول التصوف الإسلامي ، دار المعرفة الجامعية ، الإسكندرية 1991 م.

21- حسين عاصي ، ابن خلدون مؤرخا ، دار الكتب العلمية،بيروت،لبنان، الطبعة الأولى،1991م.

22- حسين عاصي، التصوف الإسلامي مفهومه وتطوره ومكانته من الدين والحياة ، مؤسسة عز الدين للطباعة والنشر، بيروت، الطبعة الأولى ،1994 م..

23- خليل شرف الدين، في سبيل موسوعة فلسفية، منشورات دار ومكتبة الهلال ، بيروت ، 1983 م.

24- زكي مبارك ، التصوف الإسلامي في الأدب والأخلاق ، شركة أبناء شريف الأنصاري ، للطباعة والنشر والتوزيع، صيدا ، بيروت، الطبعة الأولى ،2006م.

25- زينب محمود الخضيري ، فلسفة التاريخ عند ابن خلدون، دار الثقافة للنشر والتوزيع ، القاهرة ، 1991 م.

26- السخاوي ، الضوء اللامع في أعيان القرن التاسع، القاهرة، د ط 1353 هـ.

27- السهر وردي ، عوارف المعارف، دار القلم ، بيروت، الطبعة الأولى ، 1966 م.

28- الطوسي ، اللمع منشورات محمد علي، بيضون لنشر كتب السنة و الجماعة ، دار الكتب العلمية ، بيروت لبنان، الطبعة الأولى 2001م.

29- عبد الرحمن بدوية، دور العرب في تكوين الفكر الأوروبي ، وكالة المطبوعات ، دار القلم، الطبعة الثالثة، الكويت، بيروت ،1979م.

30- عبد الرحمن بن خلدون، التعريف بابن خلدون ، دار الكتب اللبناني، بيروت، لبنان، د.ط ، 1979 م.

31-عبد الرحمن بن خلدون، شفاء السائل وتهذيب المسائل ، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، 1959 م.

32- عبد الرحمن بن خلدون ، كتاب العبر ، دار الكتاب اللبناني ، بيروت، د.ط ،1957 م.

33- عبد الرحمن بن خلدون، المقدمة ، دار الكتب العلمية ، بيروت، لبنان.

34- عبد الفتاح فؤاد، الفلاسفة الإسلاميون والصوفية ، دار الدعوة ، القاهرة ، الطبعة الأولى 1997 م.

35- عبد المحسن سلطان، التصوف الإسلامي في مراحل تطوره ، دار الآفاق العربية ، طبعة 1423هـ – 2003م.

36- عبد الوهاب الشعراني ، الطبقات الكبرى تحقيق سليمان صالح، دار المعرفة، بيروت، لبنان.

37- عمر فروخ، التصوف في الإسلام ، دار الكتاب العربي ، بيروت، لبنان، 1401 هـ – 1981 م.

38- فؤاد أفرام البستاني، مقدمة المقدمة ، المطبعة الكاثوليكية ، بيروت، 1965م.

39- القشيري ،الرسالة، المكتبة التوفيقية أمام الباب الأخضر سيدنا الحسين.

40- الكلا باذي ، التعرف لمذهب أهل التصوف ، منشورات علي بيضون، لنشر كتب السنة والجماعة ، دار الكتب العلمية بيروت، لبنان 2001م.

41- مالك بن أنس، موطأ مالك، دار الحديث.

42- محمد بن تاويت الطنجي ، رحلة ابن خلدون، دار السويدي ، أبو ضبي ، الطبعة الأولى ،2003م.

43- محمد بن يزيد القزويني، سنن ابن ماجة ، المكتبة العلمية، بيروت.

44- محمد جلال الشرف ، التصوف الإسلامي ، مدارسه، ونظرياته، دار العلوم العربية، بيروت ، لبنان، الطبعة الأولى،1410 هـ- 1990م.

45- محمد عابد الجابري، بنية العقل العربي، مركز الدراسات والوحدة العربية، بيروت ، لبنان.

46- محمد عابد الجابري، فكر ابن خلدون ، العصبية والدولة ، مركز الدراسات الوحدة العربية،بيروت، لبنان، الطبعة الخامسة 1992م،

47- محمد عبد الله عنان، ابن خلدون وتراثه الفكري ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة، الطبعة الثالثة.

48- محمد عبد المنعم الخفاجي، التصوف في الإسلام و أعلامه، دار الوفاء الإسكندرية ، لطبعة الأولى ،2002م.

49 - مسلم بن الحجاج، صحيح مسلم، دار الفكر 1403 هـ.

50- المقري ، نفح الطيب عن غصن الأندلس الرطيب، دار مكتبة الحياة ، بيروت.

51- مكي الطائر أحمد، دراسات أندلسية ،دار المعارف، القاهرة ، 1980م.

52- يحي بن خلدون ، بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد، المكتبة الوطنية الجزائر ،(د.ط).

الفهــرس

إهداء

كلمة شكر

مقدمة

تمهيد.....01

الفصل الأول: حياة ابــن خلدون.....02

المبحث الأول: عصر ابن خلدون 03

أ- الناحية السياسية 04

ب- الناحية الاجتماعية.....06

ج- الناحية الفكرية.....09

د- الناحية الاقتصادية.....10

المبحث الثاني: التعريف بابن خلدون

أ- اسمه وكنيته 12

ب- مولده ونشأته.....13

ج- أخلاقه وصفاته.....14

د- آثاره.....16

ه- شيوخه.....17

و- رحلاته.....19

ز- وفاته.....24

الفصـــل الـثـانــي:علم التصوف في المقدمة

المبحث الأول: ماهية التصوف عند ابن خلدون

أ- تعريف التصوف :لغة واصطلاحا.....26

ب- علم التصوف قبل ابن خلدون.....29
ج- التصوف في المقدمة.....36
د- مصادر التصوف عند ابن خلدون.....38
المبحث الثاني: منهج ابن خلدون في بحث التصوف
أ- المنهج الصوفي.....42
أ1:المقدمات.....43
أ2: المجاهدات.....44
ب- موقفه من التصوف
ب1: حقيقة علم المكاشفة كما يراها ابن خلدون.....46
ب2:موقفه من المصطلحات الصوفية.....49
ب3: موقفه من الأحوال والموارد 50
خاتمة.....54
قائمة المصادر والمراجع 55
فهرس المواد.....58